المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

دراسة

إستراتيجيّات الحِجاج في المناظرة السياسيّة

– مناظرة التنافس على الرّئاسة بين نيكولا ساركوزي وفرانسوا هولاند –

أنور الجمعاوي | مايو 2013

إستراتيجيّات الحِجاج في المناظرة السياسيّة: مناظرة التنافس على الرّئاسة بين نيكولا ساركوزي وفرانسوا هولاند

سلسلة: دراسات

أنور الجمعاوي | مايو 2013

جميع الحقوق محفوظة للمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات © 2013

المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات مؤسّسة بحثيّة عربيّة للعلوم الاجتماعيّة والعلوم الاجتماعيّة التطبيقيّة والتّاريخ الإقليميّ والقضايا الجيوستراتيجية. وإضافة إلى كونه مركز أبحاثٍ فهو يولي اهتمامًا لدراسة السّياسات ونقدها وتقديم البدائل، سواء كانت سياسات عربيّة أو سياسات دوليّة تجاه المنطقة العربيّة، وسواء كانت سياسات حكوميّة، أو سياسات مؤسّسات وأحزاب وهيئات.

يعالج المركز قضايا المجتمعات والدول العربيّة بأدوات العلوم الاجتماعيّة والاقتصاديّة والتاريخيّة، وبمقاربات ومنهجيّات تكامليّة عابرة للتّخصصات. وينطلق من افتراض وجود أمن قوميّ وإنسانيّ عربيّ، ومن وجود سماتٍ ومصالح مشتركة، وإمكانيّة تطوير اقتصاد عربيّ، ويعمل على صوغ هذه الخطط وتحقيقها، كما يطرحها كبرامجَ وخططٍ من خلال عمله البحثيّ ومجمل إنتاجه.

المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات
شارع رقم: 826 – منطقة 66
الدفنة
ص. ب: 10277
الدّوحة، قطر
هاتف: 44199777 974+ | فاكس: 44831651 974+
www.dohainstitute.org

ملخّص

ننطلق في هذه الورقة من فرضيّة اعتبار المناظرة السياسيّة واقعة تواصليّة، وفعلًا اجتماعيًّا حضاريًّا، وعملًا لغويًّا حِجاجيًّا تفاعليًّا بامتياز، يتأسّس على انفتاح الباثّ على المتقبّل في إطار تبادليّ للمواقف والانطباعات، وينبني على استحضار الطّرفين المتناظرين لأدوات بيانيّة، وتقنيات حِجاجيّة، ووسائل خِطابيّة توظّف لإقرار المتكلّم أو مناظره أطروحة أو فكرة أو مشروع تصوّر للإنسان والأشياء والظّواهر ونقض أطروحة أخرى. ويواكب ذلك وعي من الجانبين بمعطيات الواقع بتعقيداته المختلفة، واقتضاءات المقام بمكوّناته المتعدّدة، وعمل منه على إيقاع التأثير في المتلقّي/ الهدف قصد الخروج به من موقف تواصليّ إلى آخر؛ أعني الخروج به من الحياد إلى الانحياز أو من المعارضة إلى المناصرة.

وحتّى لا يكون خطابنا موغلًا في التنظير، راسخًا في التجريد، فقد رأينا أن نصل المجرّد بالعينيّ، وذلك بأن نشتغل على إستراتيجيّات الحِجاج وآليّاته في المناظرة التاريخيّة التي وضعت نيكولا ساركوزي Nicolas Sarkozy وجهًا لوجه مع فرانسوا هولاند François Hollande، في إطار تنافس الرّجلين على الفوز برئاسة فرنسا لسنوات خمس؛ وذلك يوم الثاني من أيار / مايو 2012.

وقد حاولنا تبيّن كيفيّات انتظام الفعل الحِجاجي عند المتناظرين، ومهّدنا لذلك بضبط الإطار المفهومي للحِجاج والمناظرة السياسيّة، ثمّ تراقينا إلى إمعان النّظر في إستراتيجيّات إيراد الأفكار ودحض الآراء، وتقنيات البرهنة عند المتنافسين؛ ففصّلنا القول في أنواع الحُجج، وفي وظائف الحِجاج عند كلّ منهما، وتجاوزنا ذلك إلى توصيف خصائص اللّغة في المناظرة السياسيّة، وتحليل أبعادها الدلاليّة، والبحث في قصديّة العمل الحِجاجي والتناظر السياسي.

وقد استأنسنا في تجلية خصائص هذا الفنّ من فنون الكلام، وتبيّن آليّات اشتغاله، وفي الجمع بين مطلب التنظير ومطلب التطبيق بمبدأ تظافر المناهج، فأخذنا في مقاربة موضوع إستراتيجيّات الحِجاج في المناظرة السياسيّة، بآليّات تحليل الخطاب من ناحية، وبتقنيات القراءة المجهريّة الدّلاليّة للملفوظ من ناحية أخرى، وانتهجنا نهج الوصف والتّحليل قصد اجتناء النّتائج، وقصد تمثّل خطاب المناظرة وتفكيكه

وتجلية خصائصه ودلالاته، باعتباره منجزًا لغويًّا دلاليًّا حمّالًا لخلفيّة أيديولوجيّة وقصديّة خطابيّة ومؤسّسًا على بناء حِجاجي مخصوص.

ولا ندّعي أنّنا قد استوفينا المسألة نظرًا، ولكنّها محاولة للفهم وللإفهام.

الكلمات المفتاحية: مناظرة سياسيّة – حِجاج – نيكولا ساركوزي – فرانسوا هولاند – المتلقّي – الإقناع – النّاخب.

المحتويات

مقدمة 1

1. دواعي البحث 4
2. أهداف البحث 5
3. منهجيّة البحث 6

أولًا: في مفهوم الحِجاج 8

ثانيًا: في مفهوم المناظرة السياسيّة 10

ثالثًا: أطروحة الحِجاج في مناظرة هولاند/ ساركوزي 12

رابعًا: إستراتيجيّات الخطاب الحِجاجي في المناظرة السياسيّة 15

1. تنويع الحجج 16
   - أ. الحجّة الواقعيّة 16
   - ب. الحجّة القيميّة 22
   - ج. حجّة السّلطة 24
2. تعديد الأسئلة 28
3. الاستدراج بالسّؤال 29
4. تبئير الخطاب 31

خامسًا: لغة الخطاب في المناظرة السياسيّة 33

1. في اصطفاء العبارة وبلاغة الخطاب الشّفوي 34
2. التّكرار 38
3. الأسلوب المباشر 40
4. في لغة النفي والإثبات 41

5. لغة التخويف والطّمأنة 44

سادسًا: في بلاغة المقام والأداء في المناظرة السياسيّة 47

1. في الظّروف المقاميّة للمناظرة السياسيّة 47

2. بلاغة الأداء في المناظرة السياسيّة 50

أ. في بلاغة الأداء الرّكحي 50

ب. في بلاغة الأداء الحركي 53

ج. في بلاغة الأداء الصّوتي 55

سابعًا: وظائف المناظرة السياسيّة 58

1. الوظيفة التعريفيّة/ التعبيريّة 59

2. الوظيفة التأثيريّة 60

3. الوظيفة الإقناعيّة 61

ثامنًا: قصديّة الحِجاج في المناظرة السياسيّة 63

1. إحداث التفاعل 63

2. الاستجابة لأفق انتظار المتقبّل 64

3. الاستقطاب 65

استنتاجات 66

المصادر والمراجع 70

مقدمة

تعدّ المناظرة السياسيّة فنًّا من فنون الكلام المؤسّس على الجدل، فهي مناسبة للقول تجمع بين طرفين فأكثر يتنافسان في تمثّل الأشياء وتحليل الظّواهر المتعلّقة بالفرد أو الجماعة على نحو مخصوص، فيستدعي كلّ طرف ما استطاع من أقطار الكلام وأساليب البيان والحِجاج ليبيّن سداد رأيه، وسلامة موقفه، ويبرز تهافت غيره وفساد حجّة خصمه. والمراد ليس ترجيح رأي على آخر فحسب، بل المراد النّهائي استمالة المتقبّل واستتباع الآخر والوقوع موقعًا حسنًا من قلوب الخاصّة والعامّة؛ لذلك فالتّباري في ميادين السياسة شكل من أشكال التّدافع الحضاري في قراءة الواقع حاضرًا وماضيًا ومستقبلًا، وهو أيضًا مجال للتّنازع السّلمي على كسب ثقة النّاس باعتبار أنّ غاية التناظر هي إفحام الخصوم من ناحية، وإقناع المتلقّي المتابع للمناظرة بوجهة نظر ما، في شأن عمراني ما، من ناحية أخرى.

وقد ازدهر فنّ المناظرة على نحو منقطع النّظير مع صعود الدّيمقراطيّات الحديثة، فقد اتّسعت فضاءات التّعبير، وتعدّدت مجالات التفكير ومنابر الرّأي ومنتديات الحوار في مجتمعات تسمّت الدّولة فيها بدولة حقوق الإنسان والحرّيات العامّة. لذلك لا عجب أن يتهيّأ ملايين النّاس في فرنسا وخارجها لمتابعة مناظرة تلفزيّة سياسيّة مباشرة جمعت بين نيكولا ساركوزي ومنافسه على كرسيّ الرّئاسة فرانسوا هولاند، وذلك مساء الثاني من أيار / مايو 2012.

والحدث على غاية من الأهمّية لأنّ فاعلي الحدث هما شخصيّتان ناشطتان داخل الاجتماع المدني الفرنسي من ناحية، ومعروفتان بانتمائهما إلى فصيلين سياسيّين مختلفين ومتنافسين على مدى

عقود عدّة، فساركوزي محسوب على اليمين اللّيبرالي الفرنسي، وهولاند هو ممثّل اليسار الاشتراكي ببلاد الأنوار، وكلاهما يصدر عن خلفيّة أيديولوجيّة مخصوصة، وعن تصوّر محدّد للشّأن العامّ في فرنسا ولآليات تنظيم شؤون النّاس وترتيب أحوالهم في تسيير المجالات الاجتماعيّة والاقتصاديّة. كما لكلّ منهما رؤية لعلاقات فرنسا الإقليميّة والدوليّة.

وعلى الرغم من أنّ استطلاعات الرّأي قد رجّحت، سلفًا، كفّة هولاند، فإنّ المناظرة مهمّة بالنّسبة إلى الطّرفين، باعتبار أنّ كلًّا منهما أراد كسب معركة ذلك اللّقاء التلفزي المباشر الموجّه إلى ملايين المشاهدين، فكسب اللّقاء هو كسب للمعركة الانتخابيّة وحسم لنتيجة المنافسة لا محالة. لذلك كان ساركوزي ميّالًا إلى قلب الموازين لصالحه، وكان هولاند مسكونًا بهاجس المحافظة على تقدّمه على خصمه، توّاقًا إلى التربّع على عرش الإليزيه. وكان النّاس، على اختلاف هويّاتهم السياسيّة، في شغف لمتابعة وقائع المناظرة لما فيها من شدّ وجذب، وردّ للحجّة بالحجّة، وكشف للمستور، وإحراج للمخالف، ولما فيها من نقد للماضي والحاضر واستشراف للمستقبل. والنّاخب الفرنسي إذ يتابع ما يتابع من أحداث المناظرة يقرّر المشاركة في العمليّة الانتخابيّة من عدمها، ويقرّر تأييد هذا الطّرف على ذاك، وهو في نهاية المطاف يرى الحدث تاريخيًّا باعتباره سيمكّنه من اختيار مصيره؛ أعني مصير البلد كافّة. من هنا، كان التناظر السياسي في الشأن العامّ بين الرّئيس وبين منافسه حدثًا جللًا تهتزّ له النّفوس، وتهفو له القلوب، وتُشدّ إليه الأنظار، وترسم به المصائر. ويعد هذا الأمر عادة درجت عليها المجتمعات المتمدّنة، لكنه يعتبر بدعة، بل فعلًا مستهجنًا يدعو إلى الرّيبة والخوف والتّخويف في البلاد العربيّة، حتّى إنّنا لم نشهد إلى حدّ اللّحظة مناظرة بين رئيس عربيّ وخلفه، وأسباب ذلك عدّة، يضيق بتفصيلها المقام.

وأهمّية الحدث في الاجتماع الفرنسي خصوصًا، والغربي عمومًا، تجعله محطّ اهتمام الإعلاميّين والمشتغلين بالشأن السياسي في باريس وخارجها، وأهمّيته تقتضي من المتنافسين الاستعداد له وحسن

إدارته والحرص على اغتنامه والتميّز في إنجازه. من هنا، كان كلّ من ساركوزي وهولاند يعتمد إستراتيجيّة في الخطاب مخصوصة، ومنهجًا في الحوار محدّدًا، والمراد إفحام الآخر واستمالة المتابعين للمناظرة السياسيّة.

لذلك سنركّز هنا على النّظر في تقنيات الإخراج اللّغوي عند الرّجلين أثناء المناظرة، والبحث في إستراتيجيّات الحِجاج عند كلّ منهما، ومدى وقع ذلك في المتقبّل باعتباره الغاية النهائيّة لخطاب المناظرة السياسيّة.

وقد امتدّ الحوار بين الطّرفين المتناظرين على مدى ساعتين وخمسين دقيقة، ودار السّجال حول مسائل حيويّة شتّى تتعلّق بانتظام الحياة السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، فقد شمل الجدال قضايا التنمية، ومشاكل الهجرة ومعضلة البطالة، كما تعلّق بواقع التربية والتكوين داخل الاجتماع الفرنسي، والعلاقات بالخارج، فضلًا عن الطاقة النوويّة، ونمط الرّئاسة، وآليّات الشراكة مع حلفاء فرنسا في الاتّحاد الأوروبي وخارجه. وقد جرى الحوار، عمومًا، في كنف الهدوء والرّصانة ولزوم الاعتدال، ولم ترتفع وتيرته إلاّ عند إشرافه على النهاية، وذلك لمّا تدافع المتحاوران بشدّة في شأن طبيعة سلطات الرّئيس وكيفيّات تعاطيه مع الشّأن العامّ. غير أنّ ذلك لم يرق إلى درجة التشنّج الزائد عن اللّزوم أو إلى درجة العنف اللّفظي أو الرّمزي، فقد ظلّ التناظر، على حدّته، محكومًا بآداب الحوار ومقتضيات السّلوك الجدالي المتحضّر، حتّى إنّ مسار السّجال تأسّس على الإنصات المتبادل، والردّ بالنّقض أو الإبرام مع تقديم البديل المناسب في رأي كلّ متكلّم من المتناظرين، وكان كلّ طرف يؤسّس قوله على نظام في الحِجاج مخصوص، وعلى نهج في الاستقطاب محدّد.

- فما المراد بالحِجاج في المناظرة السياسيّة؟
- ما هي إستراتيجيّات الحِجاج التي اتّبعها المتنافسان عند المناظرة؟

- ما هي وظائف الحِجاج في المناظرة السياسيّة؟ وما هي مقاصده؟

هذه الأسئلة وغيرها ستكون مدار نقاشنا في هذا البحث.

1. دواعي البحث

دفعتنا إلى البحث في هذا الموضوع عدّة دواعٍ، لعلّ أهمّها:

ما يُلاحظه المتابع للشأن السّياسي العربي المعاصر من ندرة المناظرات السياسيّة عمومًا، ومحدوديّة فضاءات الجدل في الشّأن العامّ بين قيادات الأحزاب أو بين أنصار الحكم وجمهور المحكومين، وبين المؤيّد للسّلطان والمعارض له. وذلك راجع لاقتضاءات الدّولة القامعة في البلاد العربيّة، بل إنّنا نعدم إلى حدّ اليوم وجود مناظرة بين متسابقين على الرّئاسة أو بين رئيس متخلٍّ وخلفه، لذلك عنينا بالنّظر في إستراتيجيّات الحِجاج في المناظرة التي جمعت ساركوزي بهولاند في أثناء السّباق على الرئاسة. والدّاعي إلى ذلك رغبتنا في إرساخ المناظرة السياسيّة في الاجتماع العربي باعتبارها شكلًا من أشكال دمقرطة التعبير في الدّول المتقدّمة.

وحفّزتنا إلى هذا البحث ندرة المصنّفات المعنيّة بالتنظير لفنّ المناظرة السياسيّة في السّياق المعرفي العربي المعاصر، فالبحث في آداب المناظرة وأدواتها ومناهجها وجهازها اللّغوي واعتباراتها الدّلاليّة والمقاميّة مطلب لم يحظ بعدُ بالنّظر العلمي من جانب العرب.

ومع أنّ عددًا من الحوارات العابرة في البلاد العربيّة قد حظيت بالتّغطية الإعلاميّة والتّعليق الصّحفي، فإنّ المناظرة السياسيّة، باعتبارها جنسًا في القول ونمطًا في التّعبير، لم تجد بعدُ حظّها من الدّراسة المتأنّية والمعمّقة، باعتبارها رسالة لغويّة تفاعليّة تقتضي البحث والتدبّر وتتأسّس على جملة من الآليّات والمنظومات المنهجيّة والدلاليّة والنفسيّة، لذلك آلينا على أنفسنا أن نهتمّ في هذه الورقة بجانب من

جوانب صوغ المناظرة السياسيّة؛ نعني إستراتيجيّات الحِجاج وتقنياته ووظائفه في هذا النّمط من أنماط التّعبير.

والحقيقة أنّنا لن نُعنى بتفاصيل محتوى الخطاب الحِجاجي لدى المتناظرَين، ولن نبحث في صحّة ما ذهبا إليه في تقويم عدد من القضايا السّاخنة داخل الاجتماع الفرنسي من قبيل: الخطّة الرئاسيّة، والهجرة، ولاقتصاد، والضمان الاجتماعي، وهويّة الدّولة، والطاقة النوويّة، والسياسة الخارجيّة، فتلك مسائل يضيق بتفصيلها المقام من ناحية، ولا تندرج في مجال دراستنا من ناحية أخرى، باعتبار أنّنا نُعنى في هذه الورقة بالبحث في تقنيات الحِجاج في المناظرة السياسيّة وأدواره وخصائصه؛ لذلك فإنّنا إذ نستحضر تلك القضايا فإنّنا لا نستدعيها لذاتها، بل باعتبار تناول جوانب منها، يسهم في تجلية إستراتيجيّات الحِجاج في المناظرة السياسيّة.

2. أهداف البحث

نروم من خلال هذا البحث تحقيق الأهداف التالية:

- جعل المتلقّي قادرًا على إدراك مسارات الحِجاج في المناظرة السياسيّة ووظائفه وغاياته.
- الوعي بكيفيّات توجيه اللّغة الطبيعيّة في الخطاب السياسي لتصبح لغة حِجاجيّة بامتياز غايتها التأثير، والتحويل، والإقناع، لا الإعلام والإخبار فحسب.
- تبيّن الظروف المقاميّة، والخصائص الفنّية التي تساهم في تشكّل الخطاب الحِجاجي في المناظرة السياسيّة.
- بيان الوصل بين تطوّر فنّ التناظر في السياق الحضاري الأوروبي عمومًا والفرنسي خصوصًا، وبين توافر شرط الحرّية في التفكير والتعبير في الدّول المتقدّمة.

- الوعي بامتياز المواطن عن السّلطة الحاكمة[1]، وقدرته على الفعل فيها وتوجيه خياراتها وفق حاجاته وتطلّعاته، لتكون خادمة له، حاضنة لمكتسباته ومحقّقة لطموحاته، وذلك عبر تبيّن كيفيّات إعلاء فرانسوا هولاند ونيكولا ساركوزي من قيمة المواطن باعتباره أصل المناظرة ومحورها، وغايتها الأبرز.

3. منهجيّة البحث

انطلقنا في تناولنا لهذا البحث من مدوّنة شفويّة مكتوبة في آن معًا، وتتمثّل في النّسخة المصورة بالفيديو[2] والنّسخة المرقونة[3] من مناظرة التنافس على الرّئاسة بين هولاند وساركوزي، وحاولنا أن نستجلي في متن

---

[1] في خصوص امتياز المواطن عن السّلطة الحاكمة وامتياز المجتمع المدنيّ عن النّظام في الديمقراطيّات الحديثة، راجع: عزمي بشارة، "فاعليّة المجتمعات المدنيّة في الدّول العربيّة"، الدوحة، ملتقى النهضة الشبابي الثاني، نيسان / أبريل 2011، انظر:

http://www.youtube.com/watch?v=mal4N8MCtCw

وكذلك: محاضرة عزمي بشارة، "السياقات التاريخيّة لنشوء العلمانيّة"، تونس، قصر قرطاج، 19 أيار / مايو 2012، انظر نسختها المصورة بالفيديو على:

http://www.dohainstitute.org/valbum/6ec10e79-51a4-494f-9a83-2a17ceacb934

[2] راجع النّسخة المصورة بالفيديو لمناظرة التنافس على الرّئاسة بين نيكولا ساركوزي وفرانسوا هولاند على الرّوابط التّالية:

http://www.dailymotion.com/video/xqjsal_debat-hollande-sarkozy-integral_news

http://www.dailymotion.com/video/xqjtba_debat-hollande-sarkozy-integral-2_news

http://www.dailymotion.com/video/xqjuce_debat-hollande-sarkozy-integral-3_news

[3] راجع النّسخة المرقونة لمناظرة التنافس على الرّئاسة بين نيكولا ساركوزي وفرانسوا هولاند على الرّوابط التّالية في موقع صحيفة **لوموند** *Le Monde* الفرنسيّة:

“Le compte rendu intégral du débat Sarkozy-Hollande,” Le Monde.fr | 3/5/2012,

http://www.lemonde.fr/election-presidentielle-2012/article/2012/05/03/sarkozy-hollande-le-compte-rendu-integral-du-debat-theme-par-theme_1694802_1471069.html

خطاب التناظر بين الرّجلين ملامح الرّسالة الحِجاجيّة، وإستراتيجيّات المحاجّة في المناظرة السياسيّة، ودقّقنا النّظر في وظائف الحِجاج وآليّات اشتغاله، وخضنا في خصائصه اللغويّة ومقاصده، وجمعنا في تناولنا للمسألة بين مطلب التأطير المفهومي لفعل المحاجّة وفعل التناظر، وبين مطلب القراءة لفعل المحاجّة وفعل التناظر، وكذلك مطلب القراءة العينيّة لخطاب محدّد اصطفيناه في هذا الإطار لأهمّيته الحضاريّة والتاريخيّة؛ أعني خطاب التناظر بين هولاند وساركوزي للفوز برئاسة فرنسا. وقد تأسّس تدبّر موضوع البحث على مقاربة لسانيّة، سوسيوثقافيّة، تنطلق من لغة النصّ فتبحث في دلالاتها وإحالاتها الثقافيّة، وتحفر في خلفيّاتها الاجتماعيّة والسياسيّة والتاريخيّة على نحو يسهم في فهم آليّات التناظر والوعي بسياقاته النصّية والثقافيّة والحضاريّة.

---

http://www.lemonde.fr/election-presidentielle-2012/article/2012/05/02/le-compte-rendu-integral-du-debat-propos-liminaires-et-chomage_1694431_1471069.html

http://www.lemonde.fr/election-presidentielle-2012/article/2012/05/03/compte-rendu-integral-deficits_1694444_1471069.html

http://www.lemonde.fr/election-presidentielle-2012/article/2012/05/03/le-compte-rendu-integral-du-debat-depenses-publiques-education-europe-partie-3_1694458_1471069.html

http://www.lemonde.fr/election-presidentielle-2012/article/2012/05/03/compte-rendu-integral-du-debat-immigration-partie-4_1694472_1471069.html

http://www.lemonde.fr/election-presidentielle-2012/article/2012/05/03/compte-rendu-integral-du-debat-nucleaire-institutions-politique-etrangere-partie-5_1694483_1471069.html

أولًا: في مفهوم الحِجاج

تُعتبر مفهمة الحِجاج مسألة ضروريّة وخيارًا منهجيًّا مهمًّا، يتعيّن تمثّله قصد الوعي بإستراتيجيّات الخطاب في المناظرة السياسيّة، ذلك أنّنا نزعم أنّ المناظرة السياسيّة هي خطاب حِجاجيّ بامتياز باعتبارها موقفًا تواصليًّا، ولقاءً تفاعليًّا بين الأنا والآخر، يتأسّس على تبادل رسائل لغويّة تتراوح بين التعارض والتوافق وبين النّقض والإبرام قصد البيان عن موقف، والإخبار عن تصوّر للأشياء والكائنات والظواهر في مجالات العمران البشري؛ فالمناظرة السياسيّة خطاب قصدي، موجّه، يروم إيقاع التأثير في المتقبّل ودفعه إلى ترجيح رأي على آخر، وهو أمر يقتضي من المتناظرين وصف الحجّة ورفد البيان بالبرهان قصد إقناع المتلقّي. "والحجّة في البرهان... وقيل: الحجّة ما دافع به الخصم... وهي والوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، وهو رجل محِجاج أي جدل، وحجّه يحجّه حجّا أي غلبه على حجّته"[4]. وبذلك فالحِجاج في اللّغة فعل قول يتنزّل ضمن سياق جدالي يجمع بين طرفين فأكثر، ويتقصّد إفحام الخصم وإقناع المتلقي، فالحِجاج عمل لغويّ برهاني يندرج ضمن فضاءات التعبير عن الذات والحوار مع الغير، ويتيح المجال للتباري بالأفكار والآراء، ويقتضي من المتكلّم لزوم نهج في الإجابة ونظام في التفكير، ورصف الحجج، على نحو يضمن الفهم، ويحقّق الإفهام، ويستميل القلوب والعقول على السّواء، "فالحِجاج هو فنّ الإقناع"[5]، الذي يتأسّس على تقديم الحجج والأدلّة المؤدّية إلى نتيجة معيّنة[6]، وذلك بالاعتماد على

---

[4] ابن منظور (جمال الدين)، **لسان العرب**، مادّة "حجج" (بيروت: دار صادر، 1992)، ص570.

[5] انظر:

Karine Darbellay, “L’argumentation est un art” in *La psychopédagogie de l’argumentation* (Neuchâtel: Institut de psychologie, Université de Neuchâtel, Mai 2005), p. 4.

الأقوال اللغويّة وعلى تسلسلها واشتغالها داخل الخطاب على نحو مخصوص ينبني على "استخدام العلل قصد تأييد وجهة نظر ما"[7]، فيجري استحضار عدد من التقنيات التواصليّة الموجّهة إلى إثارة المخاطَب والزّيادة في تأييده لأطروحة ما"[8]. وبناءً عليه، فالحِجاج في نهاية المطاف، هو العمليّة التي من خلالها يسعى المتكلّم لتغيير نظام المعتقدات، والتصوّرات لدى مخاطَبه بواسطة الوسائل اللغويّة.

ومن ثمّ، يتبيّن لنا أنّ الحِجاج هو فعل لغويّ تواصليّ، يتكوّن من متواليات قوليّة، وحجج يصطفيها المتكلّم، ويرتّبها على نحو مخصوص، ويريد بها التأثير في المتلقّي وإقناعه بأطروحة معيّنة، وذلك على سبيل حمل المخاطَب على القبول برأي معيّن في إطار ما يُسمّى بـ "عمل المحاجّة"[9]، الذي يتطلب حسن تصريف العبارة، والدقّة في اختيار الحجج وعرضها، والبراعة في التمكين للأطروحة المدافع عنها، والتفنّن في توظيف التقنيات اللغويّة والإستراتيجيّات التواصليّة في كسب ثقة المتقبّل وتأييده في دحض الأطروحة النقيضة. وهذه المعطيات جميعها معدودة من لوازم المناظرة السياسيّة.

---

[6] أبو بكر العزّاوي، **اللّغة والحِجاج** (الدّار البيضاء: العمدة في الطبع، 2006)، ص16.

[7] المرجع نفسه، ص17.

[8] "الحجاج مجموعة التّقنيات الموجّهة لإثارة المُحاوَر أو دعم تأييده للأطروحات المعروضة"، انظر مادّة Argumentationفي:

Le Petit Larousse illustré (Paris, édition Larousse, 2008), p. 63.

وكذلك هو "استخدام حجّة مّا لتأييد وجهة نظر مّا"، انظر:

Hella Cortell, *Critical Thinking Skills: Developing Efection, Analysing and Argument* (New York, NY: Palgrave Macmilan, 2005), p. IXX..

[9] شكري المبخوت، "نظريّة الحِجاج في اللّغة"، في حمّادي صمّود (مشرف)، فريق البحث في البلاغة والحِجاج، **أهمّ نظريّات الحِجاج في التقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم** (تونس: جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانيّة تونس 1، كليّة الآداب بمنوبة، د.ت.)، ص360.

ثانيًا: في مفهوم المناظرة السياسيّة

تحمل المناظرة معنى "المباحثة والمباراة في النّظر واستحضار ما يراه كلّ طرف ببصيرته"[10] في شأن ما، وجاء في **لسان العرب** "المناظرة أن تناظر أخاك في أمر إذ نظرتما فيه معًا كيف تأتيانه... والتناظر: التراوض في الأمر. ونظيرك: الذي يراوضك وتناظره... وناظره من المناظرة... ناظرت فلانًا أي صرت نظيرًا له في المخاطبة"[11].

وبذلك يتجلّى لنا أنّ المناظرة هي حدث لغويّ تفاعليّ، منظّم، يتيح المجال للنّقاش حول مشكلة ما وتشخيص كيفيّات تمثّلها، وطرائق فهمها ومعالجتها، فهي مناسبة لعرض وجهات نظر متباينة حول مسألة ما[12]. وتشير المناظرة السياسيّة في الاصطلاح اللّغوي الحديث إلى إدارة "حوار رسمي"[13] بين طرفين فأكثر حول مسائل حيويّة تهمّ الشّأن العامّ لمجتمع مّا في فترة زمنيّة مّا، وتكون غالبًا مقترنة بحدث الانتخاب أو التّصويت على قرار خِلافي أو على سياسات معيّنة في مجال من مجالات الحياة المدنيّة.

---

[10] محمّد مرتضى الحسيني الزّبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق عبد الحليم الطحّاوي، المجلد 14 (الكويت: مطبعة الكويت، 1974)، ص254.

[11] ابن منظور، **لسان العرب**، مجلد 5، مادّة "نظر"، ص217–219.

[12] انظر مادّة "مناظرة" Débat ومادّة "ناظر" Débattre في:

Le Petit Larousse illustré, p. 286.

[13] راجع مادّة "ناظر" Debate في:

Raty Mc Adam, Heather Botman, and Emma Harris, *Dictionary of politics and government*, Third edition (London: Bloomsbury publishing PLC, 2004).

وبناءً عليه، يتّضح لنا أنّ المناظرة عمومًا، والمناظرة السياسيّة خصوصًا، هي فرصة للتعبير وللتّفكير وتكريس ثقافة الاختلاف، وذلك لقيامها على "خطابين متباينين يتبادلان الأدوار الكلاميّة، وينتمي كلّ منهما إلى أحد الطّرفين المتناظرين، وينمو النصّ، ويتوالد بفعل تبادل الأدوار الكلاميّة بين الطّرفين حسب قانون الفعل وردّ الفعل"[14]. فالمناظرة مقام يسمح بالتفاعل بين الذوات، ويفتح المجال واسعًا لتبادل الأفكار ومقارعة الحجّة بالحجّة، فيجري إنشاء الخطاب بغرض الخصومة[15] والمنازعة ومناقشة الخصوم[16]، ويُفترض في المتكلّم أن يعرف سياسة البلاغة[17]، وأن يعرف كيف يضطرّ الخصوم بالحجّة[18]، ويُطبقهم بها[19]، والمراد من ذلك أن يبلغ مبلغًا عظيمًا من التأثير في النّاس، فتكون الأعناق إليه أميل، والنّفوس إليه أسرع، والعقول عنه أفهم[20]، والعلوّ على الخصم[21] أضْمن.

---

[14] عبد الله العشي، **زحام الخطابات، مدخل تطبيقي لأشكال الخطابات بواسطة** (تيزّي وزّو، المدينة الجديدة: دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، 2005)، ص36.

[15] الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)، **البيان والتبيين**، تحقيق عبد السلام هارون، المجلد1 (القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ت.)، ص8.

[16] المرجع نفسه، ص 15 و95.

[17] المرجع نفسه، ص 197.

[18] المرجع نفسه، ص 91.

[19] المرجع نفسه، ص 197.

[20] المرجع نفسه، ص 7.

[21] المرجع نفسه، ص 176.

من هنا كانت المناظرة فعلًا تواصليًّا وحدثًا تفاعليًّا وخطابًا بيانيًّا حِجاجيًّا، تُستدعى بمقتضاه الحجّة لتدلّ على صحّة الدّعوى[22]. ويجري الوصل بين الأطروحة ومستنداتها، وبين الفكر ومتعلّقاته، وبين الحكم والمقدّمات الناظمة له على نحو يصبح الكلام فيه خطابًا موجّهًا، ومنجَزًا لغويًّا دالاًّ، معبّرًا، يتقصّد الإقناع، ويروم إيقاع التّأثير في المتلقّي. ولا تخرج المناظرة السياسيّة عن هذا الإطار باعتبارها فضاء للاختلاف بين طرفين فأكثر حول مسائل تتّصل بسياسة النّاس وتدبير شؤونهم، وترتيب أحوالهم، وإدارة عمرانهم في شتّى المجالات الاقتصاديّة، والثقافيّة، والاجتماعيّة، حاضرًا وماضيًا ومستقبلًا، فيجري فيها عرض البرامج السياسيّة والخيارات الحزبيّة والمشاريع الرئاسيّة والمقترحات الوزاريّة. ويجري الحوار حول السياسات التنمويّة والتربويّة والماليّة والإعلاميّة والإصلاحيّة، وغير ذلك كثير. ويعمد المتناظران إلى رفد الآراء والمواقف بالحجج قصد البرهنة على صحّة أطروحة ودحض أطروحة أخرى.

ومن ثمّ، فالعلاقة بين فنّ التناظر وفنّ المحاجّة علاقة ضروريّة منطقيّة، حتّى إنّ كلّ مناظرة هي حِجاج بالضرورة، لذلك رأينا أن نفكّك آليّات انتظام الحِجاج في المناظرة السياسيّة المعاصرة باعتباره مكوّنًا أساسيًّا من مكوّناتها.

ثالثًا: أطروحة الحِجاج في مناظرة هولاند/ ساركوزي

انطلق المتسابقان إلى الرئاسة من فرضيّة أنّ كلًّا منهما يرى نفسه الأجدر بها على مدى السّنوات الخمس القادمة، وأسّس كلٌّ طرف موقفه على جملة من المعطيات، وبالاستناد إلى عدد من الحجج

[22] الشريف الجرجاني، **التعريفات**، تحقيق إبراهيم الأبياري (بيروت: دار اللّسان العربي، 1992)، ص482.

والاعتبارت؛ فقد قدّم هولاند نفسه في فاتحة خطابه نفسه في صورة الرّئيس الجامع[23] لكلّ الفرنسيّين، والمستعدّ للتعامل معهم جميعًا على اختلاف انتماءاتهم الطبقيّة والعرقيّة والسياسيّة والثقافيّة، لأنّ فرنسا في حاجة إلى كلّ أبنائها. وقدّم ساركوزي شخصه على أنّه رئيس خَبِرَ دروب السياسة، وتعلّم أصول الرّئاسة على مدى أعوام خلت[24]، فاعتبر تجربته الرّكن الأهمّ في ترجيح أولويّته بتولّي شؤون البلد؛ لأنّه عليم بكلّ القضايا المحلّية والظروف الإقليميّة والدوليّة الحافّة بالاجتماع الفرنسي، عارف بالتحدّيات والأزمات التي يواجهها البلد في الرّاهن وفي المستقبل.

وبناء عليه، فإنّ الطّرفين ينطلقان من أرضيّة واحدة مؤدّاها ادّعاء الأحقّية بحكم فرنسا في الفترة الرئاسيّة القادمة، كما يلتقيان عند الالتزام بقيم الجمهوريّة وعند الوعي بخطورة المرحلة وأهمّية هذه اللّحظة في تاريخ فرنسا، فقد عدّ ساركوزي الانتخابات لحظة تاريخيّة فارقة[25]، واعتبر المناظرة فرصة للصدع بالحقيقة[26]، كما اعتبر هولاند حدث اختيار الرّئيس حدثًا جللًا بامتياز[27].

لكنّ الرّجلين يختلفان منذ بداية المسار الانتخابي عمومًا، وفي المناظرة السياسيّة التي جمعت بينهما خصوصًا في مستوى البرنامج السياسي والاجتماعي الاقتصادي لكلّ منهما وآليّات إجرائه، بل يختلفان أصلًا في الأطروحة الأساسيّة التي توجّه سعي كلّ منهما لتسلّم مقاليد الرّئاسة. فقد تأسّست

---

[23] عبّر هولاند عن هذا التوجّه الجمعيّ في خطابه خلال المناظرة بقوله: "أريد أن أكون... رئيس التجمّع".

[24] بيّن ساركوزي خلال المناظرة أنّ الرّئاسة تحتاج رجلًا خبيرًا مثله، ولمّح لذلك بقوله: "أظنّ أنّ رئيس الجمهوريّة إنسان تتشكّل شخصيّته بفضل تمرّسه بالأزمات التي واجهها".

[25] يقول ساركوزي إنّ حدث الانتخابات الرئاسيّة حدث تاريخيّ: "إنّه خيار تاريخيّ".

[26] نعت ساركوزي المناظرة بأنّها لحظة الحقيقة ولحظة الديمقراطيّة: "إنّها لحظة فريدة... لحظة الدّيمقراطيّة ".

[27] يصف هولاند أهمّية حدث الانتخابات الرئاسيّة قائلًا: "اختيار رئيس الجمهوريّة المقبل قرار مهمّ وخطير".

أطروحة هولاند في هذا الشّأن على ضرورة التّغيير معتبرًا أنّ معنى التّغيير هو مقترحه الأساسي[28]، والتّغيير هنا متعلّق بأعلى هرم السّلطة وتوابعه، فالمراد تغيير الرّئيس وتغيير واقع البلاد عمومًا، وذلك بالقطع مع سياسات المحاباة والمحسوبيّة ومظاهر الفساد الإداري والمالي، وأسباب الفرقة بين الفرنسيّين تأسيسًا لمجتمع جديد يتساوى فيه النّاس وتعمّ فيه العدالة في شتّى المجالات[29]، وتتاح فيه الفرص لكلّ الفرنسيّين للمساهمة في بناء بلدهم، وتفعيل دوره في الاتّحاد الأوروبي وفي المشهد الدولي، والتّغيير المنشود بحيث يصبح معه الرّئيس كائنًا عاديًّا، عادلًا، متواضعًا بل قريبًا من النّاس[30]، وغير متعال على النّاس، وغير مقرّب من فئة دون أخرى، بل هو مسكونٌ بهموم كلّ الفرنسيّين ومعنيٌّ بكلّ مشاغلهم، وتوّاق إلى تحقيق كلّ طموحاتهم في الحرّية والعدالة والكرامة والعيش الكريم. من هنا، كان التّغيير باعتباره ضرورة سياسيّة، اجتماعيّة، اقتصاديّة، وباعتباره حاجة وجوديّة، عمرانيّة، حضاريّة، الأطروحةَ المركزيّة في خطاب هولاند.

وعلى النّقيض منه كانت أطروحة ساركوزي مؤسّسة على ضرورة الاستمراريّة، وهي ضرورة أسّسها الرّجل على اعتبار أن بلده قد حقّق حالة من السّلم الاجتماعي في عهده، وضمن مكانة مهمّة داخل الاتّحاد الأوروبي، ودخل في مسيرة إصلاحيّة شملت عدّة مجالات، فجرى احتواء أسباب الاحتقان الاجتماعي، وتوسيع مجال الحرّيات، والحدّ من أشكال العنف، واستتبّ الأمن، وتحسّن دخل المواطن

[28] يجعل فرانسوا هولاند التّغيير شعاره الأساسيّ وأطروحته المركزيّة خلال المناظرة: "إنّ التّغيير هو ما أصبو إليه".

[29] اعتبر هولاند إقامة العدالة في شتّى المجالات من أولويّته الأساسيّة: "سأكون الرّئيس العادل... وستكون العدالة في صدارة القرارات الحكوميّة... ستكون العدالة الجبائيّة، والعدالة الاجتماعيّة، والعدالة الإقليميّة مُوجّهة لكلّ ما أفعله".

[30] دافع هولاند خلال المناظرة عن نموذج الرّئيس العاديّ القريب من النّاس الذي يريد أن يكونه، قائلًا: "يجب أن يكون الرّئيس قريبًا من الشّعب".

والضمانات الاجتماعيّة، وتراجع نسق انتشار البطالة، وحافظت فرنسا على هويّتها العلمانيّة، وساهمت مع شركائها الأوروبيّين في فضّ المشاكل المحلّية والإقليميّة والدوليّة. وبناءً عليه، فالرّجل يرى في نفسه رجل إصلاح، ومن حقّه أن يستمرّ في إتمام مشروعه الإصلاحي خاصّة أنّه الأدرى بالتفاصيل في الملفّات المفتوحة من قبيل الهجرة، والبطالة، وإصلاح منظومة التقاعد، والحيطة الاجتماعيّة. ومن ثمّ، فقد أسّس ساركوزي حقّه في تولّي أمور ولاية رئاسيّة جديدة في بلده على أهمّية رصيده السياسي السّابق في خدمة فرنسا، وعلى ضرورة الاستمراريّة حفاظًا على مصالح البلد في الدّاخل والخارج، وضمانًا للاستقرار وتحسينًا للأداء الاقتصادي والسياسي الجيّد لبلاده من وجهة نظره.

وكانت المناظرة في الحقيقة بمنزلة المتن الحِجاجي الذي استعرضه كلّ طرفٍ للدّفاع عن أطروحته، ودحض أطروحة الطّرف المقابل، فبقدر ما كان هولاند مسكونًا بهاجس البرهنة على ضرورة التّغيير وحتميّته ضمانًا لغد أفضل لكلّ الفرنسيّين، كان ساركوزي حريصًا على ضرورة الاستمراريّة باعتبارها الضامن الأساسي لبناء مجتمع جمهوري، فاعل في أوروبا وفي العالم.

رابعًا: إستراتيجيّات الخطاب الحِجاجي في المناظرة السياسيّة

يتبيّن المتابع للمناظرة السياسيّة بين فرانسوا هولاند ونيكولا ساركوزي تعدّد تقنيات الحِجاج وتمكّن الطّرفين من الأساليب البيانيّة والأدوات الاستدلاليّة الصّانعة للخطاب السياسي المساجل. ويمكن أن نُجمل أهمّ التقنيات الحِجاجيّة في المناظرة بين الطّرفين في: تنويع الحجج، وتعديد الأسئلة، وتبئير الخطاب، واصطفاء عبارات ذات طاقة إيحائيّة بيانيّة وإيقاعيّة مخصوصة. وتفصيل القول في تلك التّقنيات فيما يلي:

1. تنويع الحجج

أ. الحجّة الواقعيّة

تتأسّس الحجّة الواقعيّة على استحضار جملة من المعطيات العمليّة، والمعلومات الموثوقة التي تكون محلّ اعتراف أغلب النّاس، ويستند إليها المحاجج ليبرهن على صحّة رأيه من ناحية، وليحقّق مطلب إيقاع التّصديق في ذهن المتقبّل من ناحية أخرى، فالحِجاج في جانب من جوانبه هو محاولة للخروج بالمتلقّي من حيّز الشكّ إلى برد اليقين في شأن موقفه من بعض القضايا.

وقد جدّ كلّ من ساركوزي وهولاند في التوسّل بحجج توصف بأنّها واقعيّة لتبرير تصوّر كلّ منهما لعدد من المسائل، ففي خصوص معضلة البطالة في فرنسا شهدنا يوم الثاني من أيار / مايو 2012 ما يُسمّى بـ "معركة الأرقام" La bataille des chiffres بين المتنافسين، فقد ذهب المرشّح الاشتراكي إلى أنّ عدد العاطلين عن العمل قد تزايد بشكل كبير على امتداد سنوات ولاية خصمه، وبلغ عدد المسجّلين الجدد غير العاملين مليون شخص باعتبار العاطلين المفترَضين، وهو رقم قياسي يخبر بفشل ذريع في الحدّ من مشكلة البطالة في عهد الرئيس المنتهية ولايته[31].

في حين ذهب ساركوزي إلى أنّ الأمر خلاف ذلك، واعتبر أنّ معدّل العاطلين عن العمل في بلده هو الأقلّ مقارنة ببقيّة دول الاتّحاد الأوروبي، وشكّك صراحة في الإحصائيّات التي قدّمها هولاند معتبرًا أنّها خاطئة، قائلًا إنّ عدد العاطلين الجُدُد عن العمل خلال ولايته الرئاسيّة المنقضية لم يتجاوز الـ 422 ألف شخص.

[31] يقول هولاند متحدّثًا عن ارتفاع عدد العاطلين عن العمل خلال ولاية ساركوزي: "إنّها نسبة عالية، ضخمة، بل رقم قياسيّ... وذلك يُعدّ فشلًا".

وبذلك فقد تباينت الإحصائيّات، واختلف المرجع وتعارض القصد، فقد استند هولاند في تقديره لعدد غير المباشرين للعمل إلى عدد العاطلين المسجّلين في وكالة "قطب التّشغيل" Pôle d'emploi.

في حين اعتمد ساركوزي في ضبطه لعدد المندرجين في حيّز البطالة على المقاييس الصّادرة عن المكتب الدّولي للشّغل Bureau international du travail في تحديد مفهوم العاطل عن العمل. وبذلك فاختيار الأرقام لم يكن بريئًا، بل جرى وفق نهج انتقائي قصدي، فهولاند ميّال إلى استحضار الأرقام باعتبارها حجّة واقعيّة دامغة، يروم من خلالها الإخبار بفشل المخطّطات التنمويّة لخصمه وعجزها عن إحداث مواطن شغل جديدة، وعن الحدّ من البطالة. والقصد من ذلك التنبيه إلى قصور خصمه في مواجهة معضلة البطالة التي يعانيها قطاع مهمّ من الفرنسيّين يقدّر عددهم بأربعة ملايين مواطن.

أمّا ساركوزي، فمع إقراره بأنّ البطالة مشكلة واقعيّة، فإنّه قد قدح في الإحصائيّات التي قدّمها مناظره، مبيّنًا أنّها مؤسّسة على التّضليل والتهويل[32]، وقد ذهب إلى تقويم واقع المشكلة في بلده عبر مقارنة حال الفرنسيّين بغيرهم في الدّول المجاورة داخل الاتّحاد الأوروبي، مبرزًا أنّ الوضع في بلده أفضل من واقع الحال في باقي الدّول الأوروبيّة، وبذلك فانتفاء الإحصائيّات كان فعلًا حِجاجيًّا مدروسًا مسبّقًا الغاية منه في اعتبار هولاند ضرورة التّعجيل بالتّغيير، والقصد منه في اعتبار ساركوزي التأكيد على إيجابيّة الاستمرار في الإصلاح سعيًا إلى تحقيق المنشود.

[32] يقول ساركوزي مشكّكًا في الإحصائيّات التي قدّمها هولاند: "السيّد هولاند، إنّ الأرقام التي قدّمتها خاطئة".

وبذلك فقد كان التدافع على الأرقام[33] والتباين في اختيار المراجع في هذا الشأن مطيّة لإثبات أطروحة ونقض أخرى.

ويلاحظ الدّارس أنّ هذه المناظرة قد قوّضت ما يقال إنّ الإحصائيّات هي أكثر عناصر الحِجاج موضوعيّة، فقد كانت صدقيّة الأرقام مدار نزاع بين المتجادلين، وتباينت تقديرات الطّرفين للمُنْجَز الاقتصادي والاجتماعي والتّربوي للحقبة الساركوزيّة على هذا الأساس. وأحال المتجادلان على المؤشّرات الإحصائيّة 137 مرّة خلال الحوار وذلك بمعدّل 92 مرّة من جانب الرّئيس المنتهية ولايته، و45 مرّة من جانب مرشّح الحزب الاشتراكي. وكثافة الاستدلال بالأرقام عند ساركوزي دالّة على رغبة أكيدة في البحث عن مؤيّدات رقميّة تدعم مذهبه في القول بنجاح فرنسا في تجاوز الأزمة الاقتصاديّة العالميّة على عهده وقدرتها على المساهمة الفاعلة في المشهد الاقتصادي الأوروبي والعالمي مستقبلًا. وذهب الرّجل إلى حدّ القول إنّ فرنسا قد حقّقت أفضل نسبة نموّ بين دول منظّمة التعاون الاقتصادي والتّنمية

Organisation de coopération et de développement économiques, OCDE منذ عام 2009. والحقيقة أنّ هذا الزّعم ينطوي على مغالطة كبرى باعتبار أنّ نسبة النموّ في فرنسا قد قُدّرت في السّنة نفسها بـ 2.6% وتحسّنت بمقدار 1.4% عام 2010، وبمقدار 1.6% عام 2011. ومع أهمّية التقدّم المنشود في فرنسا في هذا الخصوص، فإنّ الواقع يقول إنّها لم تكن أفضل من شركائها في هذا المستوى من تحسّن نسبة النموّ؛ فقد شهدت الولايات المتّحدة خلال الفترة نفسها نسبة نموّ تُقدّر بـ 3%،

[33] لم تكن معركة الأرقام بين ساركوزي وهولاند قاصرة على الاختلاف في تحديد عدد العاطلين عن العمل، بل تعلّقت أيضًا بالتباين في تحديد نسبة المديونيّة، ومعدّل النموّ، وعجز الميزان التّجاري، وعدد المهاجرين...إلخ. راجع متن المناظرة في هذا الخصوص.

وبلغت نسبة النموّ في ألمانيا (2009– 2011) 3.6%، في حين سجّلت تركيا من عام 2009 إلى عام 2011 أفضل نسبة نموّ في المنطقة تُقدّر بـ + 9% و+ 7.4% على التوالي[34].

وبذلك فإنّ ساركوزي ينتقي الأرقام على طريقته، ويتناول المؤشّرات الاقتصاديّة على نحو فيه شيء من التّمويه عن الحقيقة، والمراد إبراز بلده في موقع المتألّق اقتصاديًّا في المنطقة، وذلك بفضل السياسة الاقتصاديّة الرّشيدة للمرشّح اليميني وأعضاء حكومته، وفي ذلك توظيف للمعطى الإحصائي لخدمة مطلب انتخابي/ تعبوي بالأساس.

وفي سياق منهج التلاعب بالأرقام قصد التّهوين من المُنْجَز الاقتصادي للخصم، والبرهنة على فشل منواله التّنموي كان فرانسوا هولاند ميّالًا إلى تضخيم الإحصائيّات المتعلّقة بالحصيلة الاقتصاديّة لحكومة ساركوزي، فقد ذهب إلى أنّ حجم الدَّيْن الفرنسي قد ارتفع بمقدار 600 مليار يورو منذ بداية عهد ساركوزي. هذه المعلومة غير دقيقة باعتبار أنّ حجم الدَّيْن الفرنسي قد قُدّر عام 2007 بـ 1211.6 مليار يورو، وبلغ في الثلث الأخير من عام 2011 نحو 1717.3 مليار يورو[35]، وبذلك فإنّ نسبة الدَّيْن أبعد من أن تكون قد ارتفعت بمقدار 600 مليار يورو كما زعم هولاند.

---

[34] انظر:

Mathieu Bruckmüller et Bernard de Volontat, “Débat Hollande -Sarkozy: Qui a gagné la bataille des chiffres?” Publié le 3 mai 2012: http://www.20minutes.fr/economie/927837-debat-hollande-sarkozy-gagne-bataille-chiffres

[35] Ibid..

ومن ثمّ، فإنّ المرشّح الاشتراكي لا يرى حرجًا في تضخيم الإحصائيّات، مادام ذلك فعلًا سلبيًّا لصورة الأداء الاقتصادي لمنافسه؛ لأنّ غايته الأساسيّة متمثّلة في إثبات فشل مشروع ساركوزي الرّئاسي والحكومي، وحثّ النّاس على تغييره وإحلال الاشتراكيّة بديلًا منه.

وبناءً عليه، فإنّ هولاند وساركوزي يقفان هنا على مسافة واحدة من المتلقّي، ويستخدمان أساليب التّعتيم المعلوماتي ومناهج المغالطة النّاعمة والتّمويه المقصود، ويجازفان بتغيير الأرقام سعيًا إلى استتباع المتقبّل، ولو كان ذلك عبر انتهاج نهج الدّيماغوجيا الانتخابيّة. وهو ما يطرح عدّة أسئلة حول مدى أخلاقيّة فعل التنافس السياسي في الدّيمقراطيّات الحديثة.

ولم تكن الحجّة الواقعيّة في مناظرة المتسابقين قاصرة على مراجعة الإحصائيّات فحسب، بل كانت حاضرة أيضًا من خلال الإحالة على عدد من الأحداث والوقائع التي عرفها تاريخ الرّجلين والتي تسهم إثارتها من جديد في إنارة الناخب الفرنسي وتوجيه اختياره.

وحسبنا أن نأخذ في هذا الإطار واقعتين كانتا مدار جدل المتناظرين؛ أعني واقعة لقاء ساركوزي بعدد من رجال الأعمال في نزل البريستول، وذلك قصد جمع الأموال والتبرّعات لصالح حزبه، والحال أنّه في موقع رئاسة الجمهوريّة الفرنسيّة. والثانية واقعة اصطفاف الاشتراكيّين الفرنسيّين خلف رجل الأعمال دومينيك تروتسكان، والحال أنّه متورّط في قضايا فساد مالي وأخلاقي.

فقد استحضر الطّرفان، كلّ على حدة، الواقعة التي يريد، وعمد إلى تقديمها على نحو يفيد المتلقّي بخطورة الواقعة نفسها، وفساد الفاعلين السياسيّين المشاركين فيها.

وفي هذا الإطار، ردّ هولاند الأنظار إلى حادثة استمالة ساركوزي لرجال الأعمال وسعيه إلى كسب دعمهم المالي لحزبه، والحال أنّه في موقع الرّئيس، وبذلك يكفّ ساركوزي عن كونه رئيس كلّ الفرنسيّين ليبدو في صورة الرّئيس المتحزّب الذي لم يخلع عنه جبّة الانتماء السياسي على الرغم من أنّه

سيّد الإليزيه، وليبدو في موقع من يستغلّ نفوذه الرّئاسي ليخدم مصالحه الحزبيّة الضيّقة، وهي صورة أحسن هولاند صوغها وتقديمها، وأتقن إخراجها في الوقت المناسب، وفي لقاء تابعه ملايين الفرنسيّين، فكان القصد من استدعاء هذا الحدث الواقعي الاحتجاج على عدم جدارة ساركوزي برئاسة عموم الفرنسيّين، فهو أبعد ما يكون عن التّفكير في مصلحتهم جميعًا؛ لأنّه مشغول بالتّفكير في مصالح حزبه أوّلًا وآخرًا، على خلاف هولاند الذي قدّم نفسه على أنّه رئيس فوق الانتماءات السياسيّة والحزبيّة والطبقيّة والأيديولوجيّة للمواطنين، قائلًا إنّه رئيس الجميع بامتياز.

وركّز ساركوزي، في المقابل، على استقدام مشهد التفاف الاشتراكيّين حول دومينيك تروتسكان رجل الأعمال الشهير ومدير البنك الدّولي وسعيهم إلى الدّفع به نحو قمّة الحزب ونحو تمثيلهم في سباق رئاسة الجمهوريّة، متغاضين عن ماضيه الإداري والأخلاقي المشبوه. وكان ساركوزي يتقصّد بذلك الحطّ من صورة الاشتراكيّين عمومًا وخصمه خصوصًا، وتقديمهم في صورة الانتهازيّين، وتُبّع المصلحة الحزبيّة الضيّقة.

وبذلك فالانفتاح على الواقع ومحاورة الماضي فعل يندرج ضمن إستراتيجيّات الحِجاج، وضمن مسار تقويم المنافس في أبعاده الزمانيّة المختلفة ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا؛ فالحجّة الواقعيّة تخترق الزّمن، ويمكن أن تكون عاملًا فارقًا في تزكية مرشّح أو الحؤول دونه ومنصب الرّئاسة.

ب. الحجّة القيميّة

القيمة باعتبارها نظامًا رمزيًّا، وسلوكًا معياريًّا تعيشه الجماعة وتتعاقد حوله[36]، معطى حاضر بامتياز في المناظرة التاريخيّة التي جمعت هولاند بساركوزي، فقد استلهم كلاهما الرّصيد القيمي الحديث للتّجربة الحضاريّة الفرنسيّة خصوصًا والأوروبيّة عمومًا وعبّرا عن انخراطهما في مسار التنوير الذي عرفه البلد منذ قرون، ورشّح كلّ منهما نفسه للدّفاع عن قيم الجمهوريّة وفي مقدّمتها الحرّية والعدالة والدّيمقراطيّة والسّلم الاجتماعي. وتنافسا في تقديم الضمانات في خصوص المحافظة على الهويّة المدنيّة العلمانيّة للدّولة. وفي ذلك يقول المرشّح الاشتراكي إنّه "لن يكون هناك خرق لأيّ قاعدة من قواعد العلمانيّة خلال ولايته الرئاسيّة"[37]، وهو ما أكّده ساركوزي في أكثر من موضع[38].

والحقيقة أنّ هذا الحرص على تأكيد علمانيّة الدّولة يندرج في إطار الجدل الذي عرفه الاجتماع الفرنسي خلال السّنوات القليلة الماضية حول تنامي حضور الجاليات الأجنبيّة في فرنسا، وكيفيّات التعامل معها، وطرق إدماجها داخل النّسيج المجتمعي القيمي للبلد، على نحو يحدّ من ظهور نماذج حضاريّة بديلة عن النّموذج الحداثي الجمهوري، فقد برز خلال ولايتي ساركوزي صعود تيّارين على الأقلّ: الأوّل يدعو إلى التّمكين للجاليات الوافدة في فرنسا والسماح لأفرادها بممارسة طقوسهم وعاداتهم وتقاليدهم

---

[36] لمزيد من التوسّع في مفهوم القيمة، راجع:

Steve Bruce and Steven Yearlay, *The Sage Dictionary of Sociology* (California and New Delhi: Sage Publications LTD., 2006), p. 314.

[37] يقول هولاند في المناظرة، متعهّدًا بحماية الهويّة العلمانيّة للدّولة: "في ظلّ رئاستي لن يكون هناك أيّ خرق للقوانين المتعلّقة بالعلمانيّة".

[38] اعتدّ ساركوزي في أكثر من مناسبة خلال المناظرة بحمايته للعلمانيّة، وعمله على إرساء إسلام على الطريقة الفرنسيّة، مذكّرًا أنّه قد أشرف على إصدار قوانين لمنع ارتداء الحجاب في المؤسسّات العموميّة ومنع لباس البرقع على الأراضي الفرنسيّة.

الدينيّة وفي مقدّمة ذلك الجالية المسلمة التي دخل بعض المنتمين لها في مواجهة مع علمانيّة الدّولة، خاصّة فيما يتعلّق بقضايا النّقاب، والحجاب، واللّحم الحلال... وغير ذلك. وهو ما أدّى إلى نزاعات قانونيّة بين الدّولة والمواطنين المسلمين وما أسّس لظهور توجّه لدى القيادة الفرنسيّة يميل إلى استيعاب المسلمين وجعلهم قادرين على التكيّف مع قيم الجمهوريّة والترويج لما يُسمّى بالإسلام على الطّريقة الفرنسيّة. وقد قابل هذا التيّار تيّار اليمين المتطرّف القائل إنّ فرنسا للفرنسيّين وأنّ قدر الأجانب الرّحيل من بلاد الأنوار نحو مواطنهم الأصليّة.

إزاء هذا التنوّع في بنية الاجتماع الفرنسي، بدا ساركوزي واعيًا بخطورة التّساهل مع الأجانب في مستوى السّماح بانتظامهم داخل جماعات طائفيّة أو دينيّة أو عرقيّة قد تهدّد وحدة المجتمع الفرنسي، مؤكّدًا استمراره في مواجهة كلّ سلوك يتعارض مع الهويّة العلمانيّة للدّولة وقيمها الجمهوريّة.

وفي المقابل بدا هولاند، مع تسليمه بمبدأ مدنيّة الدّولة وعلويّة قيمها الجمهوريّة، حريصًا على التّسليم بقيمة التعدديّة الثقافيّة، داعيًا إلى التأسيس إلى إطار للتعايش بين جميع الفرنسيّين على اختلاف انتماءاتهم العرقيّة والإثنيّة والدّينيّة والأيديولوجيّة والطبقيّة، مقرًّا بضرورة مشاركة المهاجرين إلى فرنسا والمقيمين بها في صوغ ملامح المشهد السياسي والعمراني في البلد، وذلك بإشراكهم في الانتخابات التشريعيّة والبلديّة. وبدا الرّجل في موقع من يقدّم مقاربة تفهمّية وفاقية لواقع التعدديّة الثقافيّة في البلد على نحو يمكّنه من استيعاب أكبر عدد ممكن من النّاخبين.

واستحضار القيم في المناظرة مدار النّظر لم يكن بتثبيت القيم الإيجابيّة وادّعاء تمثّلها فحسب، بل كان أيضًا بمحاولة تجريد الطّرف المقابل من تلك القيم، فقد جدّ نيكولا ساركوزي في نفي الصدقيّة عن

هولاند ونعته أكثر من مرّة بـ "الكاذب والمحتال والمخاتل الصّغير"[39]. وفي ذلك إمعان في التهوين ومبالغة في التّصغير الذي يُراد به التّحقير، فتسفيه المخالف فعل معياريّ يروم الطّعن في حجّية الخصم وضرب مصداقيّته عند النّاس، فيكفّ عن كونه صادقًا، شفّافًا، وفيًّا لعهده ووعده ليصبح مجردًا من ذلك كله.

وبالمقابل، فقد جدّ هولاند في نفي تلك الصّفات الشّنيعة عن نفسه وإلحاقها بخصمه الذي نعته بالمماطل، ومدّعي امتلاك الحقيقة، وبالمحاباة، وتراقى به الأمر إلى اعتباره سبب الفرقة داخل المجتمع الفرنسي.

ج. حجّة السّلطة

السّلطة باعتبارها حالة نفوذ ولحظة هيمنة[40]، ومجال تعبير عن الذّات، وتأثير في الآخر هي معطى حاضر بشكل لافت للنّظر في مناظرة ساركوزي/ هولاند وذلك من خلال ثلاثة مظاهر على الأقلّ: الأوّل سلطة القول؛ فالمناظرة مناسبة وفّرت للرّجلين فرصة الكلام أمام ملايين المشاهدين في فرنسا وخارجها. وأتاحت لكلّ طرف استخدام تقنيات البيان وإستراتيجيّات البرهان للفعل في المتقبّل، ومحاولة امتلاكه، وتوجيهه بالاعتماد على سلطة الحجّة وسطوة العبارة. فكان كلّ طرف يوظّف حضوره الرّكحي والإعلامي وبروزه المشهدي ليفعل في اللّغة وفي النّاس، وليبشّر بالحقيقة التي تخصّه، وبما يراه السّبيل إلى الخلاص من أزمات شتّى. وفي كلّ ذلك تمكين للذات وتركيز لسلطة الأنا، "فقد ارتبط خطاب

---

[39] نعت ساركوزي مناظره هولاند بأبشع النّعوت أكثر من مرّة قائلًا: "إنّه افتراء وسخافة، إنّك سخيف صغير".

[40] انظر مادّة "السّلطة" Pouvoir في:

Le Petit Larousse illustré (Paris: Editions Larousse, 2008), p. 812.

السّلطة... بسلطة الخطاب وكلمات السّلطة بسلطة الكلمات"[41]، على سبيل "الرّغبة في السيطرة وبسط النّفوذ، وذلك أنّ هاجس السّلطة إنّما يتمثّل في تحصيل الشرعيّة التي تضمن لسلطانها الاستقرار والاستمرار"[42].

والمظهر الثاني للسّلطة هو التّعبير الصّريح عن مركزيّة الأنا وترشيحها للرّئاسة مستقبلًا بالقوّة أو بالفعل؛ ففي إجابة عن سؤال كيف تعتزمون حكم فرنسا؟ وأيّ نظام للرّئاسة ستعتمدون؟[43] قدّم هولاند نفسه أنّه "سيّد الإليزيه في المرحلة القادمة"، وكرّر عبارة "أنا باعتباري رئيس فرنسا..." خمس عشرة مرّة على التّوالي في ظرف ثلاث دقائق، وأردفها بتعبيرات قصديّة موجّهة تكاد تتركّز جميعًا على نقض سياسات سلفه، ونقد توجّهاته في إدارة الدّولة وتسيير شؤون النّاس؛ فهو القائل على سبيل الذكر لا الحصر: "أريد أن أكون رئيسًا يحترم الفرنسيّين، ويضعهم في الاعتبار، لا أريد أن أكون رئيس كلّ شيء، قائد كلّ شيء، وغير مسؤول عن أيّ شيء"[44].

وفي ذلك دلالة على أنّ الرّجل يتحدّث من موقع الواثق بالظّفر برئاسة فرنسا من ناحية، باعتباره قد تقمّص دور الرّئيس المقبل وفصّل صلاحيّاته وملامح رئاسته، كما أنّ الإطناب في التّكرار دالّ على

---

[41] محمّد سبيلا، "الأيديولوجيا والبلاغة"، **مجلّة المناظرة**، العدد 4 (1991)، ص72.

[42] مصطفى الغرافي، "البلاغة والأيديولوجيا: بحث في العلاقة الملتبسة بين المعرفة البلاغيّة والمعرفة الأيديولوجيّة"، **مجلّة الفكر العربي المعاصر**، العدد 156- 157 (خريف 2011)، ص139.

[43] نص السؤال: "كيف تعتزمون الحكم؟ ما هو نموذج الرّئيس الذي تريد أن تكون؟".

[44] اغتنم فرانسوا هولاند السؤال عن نمط الرئاسة ليجعل منه نواة تعبيريّة يكشف من خلالها تصوّره لمنصب الرّئاسة، ويخُبر بعزمه القطع مع النموذج الساركوزي في هذا المجال قائلًا: "رئيس يحترم الفرنسيّين أوّلًا، ويضعهم في الاعتبار. رئيس لا يريد أن يكون سيّدًا على كلّ شيء، مشرفًا على كلّ شيء، وغير مسؤول في النّهاية عن أيّ شيء".

حضور مكثّف للذات، وعلى تركيز لسلطة الأنا الرّئيس في وعي النّاس ولاوعيهم، وهي سلطة تروم تغيير الواقع المجتمعي وتبديل نمط الرّئاسة.

فهولاند بهذا المنحى في التّعبير يؤسّس لسلطة جديدة تقوّض السّابق وتقوم بديلًا منه،، فهو يوظّف لحظة الإجابة عن السّؤال ليشنّ هجومًا عنيفًا على سياسات خصمه، وليعد النّاس بالقطع مع الفساد والمحسوبيّة والمحاباة[45] والفرقة قصد تأسيس مجتمع جمهوري تتوافر فيه العدالة والمساواة وينفتح فيه الرّئيس العادي المتواضع على مشاغل النّاس وهمومهم اليوميّة وأحلامهم المستقبليّة.

وهذا التصوّر للسّلطة، يقابله تصوّر آخر تبنّاه ساركوزي ويتمثّل في اعتبار الرّئاسة فعلًا جللًا ومسؤوليّة كبرى، وليست أمرًا عاديًّا باعتبارها منصبًا يؤهّل المضطلع به للتصدّي لعدد من المشكلات ولحلّ عدد من المعضلات ولمواجهة الكثير من التحدّيات التي لا يواجهها الإنسان العادي، فيطلب من الرّئيس ما لا يُطلب من غيره، ويُرْتقى به إلى مقام الشخصيّة غير العاديّة بالضّرورة[46]، فهي شخصيّة خارقة إلى حدّ ما، باعتبارها تسوس النّاس، وتتمثّل مشاغلهم جميعًا وتستوعب ماضيهم وحاضرهم، وتستشرف مستقبلهم، وتتحدّى الظّروف القاهرة، وتحدث الوضعيّات الممكنة للتّحديث والتّطوير. وسلطة الرّئيس هي سلطة فارضة لمنهج مَا ولخيار مَا في التّسيير يستجيب لطبيعة التحدّيات، ويؤسّس لكسب معركة التقدّم في مختلف المجالات.

---

[45] يقول هولاند ملمّحًا لجمع ساركوزي الأموال لصالح حزبه، ويخبر بأنّه لن يقدم على ذلك إذا تولّى مقاليد الرّئاسة في فرنسا: "أنا باعتباري رئيسًا للجمهوريّة، لن أشارك في جمع تبرّعات لصالح حزبي في نزل باريسيّ". ويعد هولاند بإرساء قواعد عدالة مستقلّة قائلًا: "أنا باعتباري رئيسًا، سأُفَعّل العدالة على نحو مستقلّ".

[46] يقول ساركوزي في توصيف منصب رئاسة الجمهوريّة خلال المناظرة: "خطّة رئيس الجمهوريّة ليست خطّة عاديّة".

ويتمثّل المظهر الثالث للسّلطة في مناظرة الرّجلين في اعتماد سلطة الرّمز، فقد استحضر كلّ منهما عددًا من أعلام السّياسة وقادة الشّأن العامّ في فرنسا من قبيل شارل ديغول وفرانسوا ميتران وجيسكار ديستان، وحاول كلّ طرف الانخراط في سنّة الرّئاسة والبحث عن نسب بينه وبين من نجحوا في قيادة البلد والبرهنة على أنّه يراكم على جهود السّابقين البناء الحضاري والانتظام السياسي للمجتمع الجمهوري.

وتأسّست حجّة السّلطة هنا على استخدام أعمال شخص أو مجموعة من الأشخاص وأحكامهم حجّة على صحّة أطروحة ما[47]. وبذلك تأسّس التّرميز هنا على "الانتقال من الرّمز إلى ما يرمز إليه مثلما ينتقل من العلم إلى الوطن ومن الصّليب إلى المسيحيّة"[48]، وهذا الضرب من الانتقال الرّمزي الإيجابي اعتمده المتنافسان بحثًا عن شرعيّة وعن استمرار أحقّية في تولّي شؤون الرّئاسة. غير أنّ الرّمز قد يكون في بعض المواضع سبيلًا إلى إقامة الحجّة على الخصم خاصّة إذا كانت رمزيّة الرّمز ذات بعد إيحائيّ سلبيّ لا يرده المناظر في الطّرف المقابل، من ذلك في مناظرة الحال تهرّب فرانسوا هولاند من أن يكون وريثًا للستالينيّة كما ادّعاه ساركوزي، وتهرّب هذا الأخير من أن يكون حليفًا لرئيس الوزراء الإيطالي السابق سيلفيو برلسكوني، لما لحق به من شبه الفساد الإداري والسّياسي والمالي.

---

[47] انظر:

Chaîm Perelerman et Lucie Olbrechts-Tyteca, *Traité de l'argumentation- la nouvelle rhétorique, pré face de Michel Mayer*, 5ème édition (Bruxelles: éditions de l'université de Bruxelles, 1992), p. 411.

[48] عبد الله صولة، "الحِجاج: أطره، منطلقاته وتقنياته من خلال مصنّف في الحِجاج– الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكان"، في: حمّادي صمّود (مشرف)، **أهمّ نظريّات الحِجاج في التقاليد الغربيّة**، ص 336.

2. تعديد الأسئلة

تعدّدت الأسئلة المطروحة في المناظرة، وتعلّق أغلبها بالشّأن الدّاخلي الفرنسي، واجتهد كلّ من المتناظرين في الدّفاع عن موقفه من القضايا مدار النّقاش.

لكنّ السّؤال لم يكن صادرًا عن منشّطي اللّقاء بين الرّجلين فحسب، بل كان أداة استفهاميّة حواريّة، وآلة حِجاجيّة استخدمها المتناظران أثناء الواقعة التواصليّة الجامعة بينهما، فقد استحضر كلّ طرف السّؤال لا بغاية طلب شيء غير حاصل وقت الطّلب، أو بغاية الاستفسار عن أمر غير مفهوم، بل كان طرح السّؤال على الطّرف المقابل على سبيل المحاجّة التي تريد تبكيت المخالف وإعلان الغلبة عليه أمام النّاس كافّة، لذلك تنوّعت مداخل الأسئلة الإفحاميّة وكان القصد واحدًا؛ أعني تعجيز الخصم والتّشويش على تواصله مع المتلقّين. ويمكن أن نثبت على سبيل الذّكر حضور السّؤال الاستفزازي الإنكاري في المناظرة من قبيل مساءلة ساركوزي لهولاند بلهجة لا تخلو من الإثارة والسّخرية اللاّذعة قائلًا: "أتظنّ أنّه يكفي المجيء بهذه البدلة الصّغيرة" [لتولّي مقاليد الرّئاسة].

ففي هذا السّؤال محاولة لتصغير المنافس وإثارة انفعاله رغبة في إرباكه والتهوين من قدره أمام الجمهور وبيان لقلّة خبرته بأمور الرّئاسة، وفي ذلك إعلام أنّ السّائل على خلاف المسؤول عليم بشؤون سياسة النّاس وإدارة شؤونهم. ولم تكن إستراتيجيّة طرح السّؤال المباغت غائبة عن نهج هولاند في المحاجّة، فقد باغت ساركوزي بالسّؤال عن تفاصيل تتعلّق بماضيه السياسي وانحيازه إلى حزبه وإلى رجال الأعمال على حساب اقتضاءات الرّئاسة؛ فقد باغته بالسّؤال قائلًا: "ألم تذهب أبدًا إلى نزل البريستول مع السيّد وورث Worth لجمع الأموال [لحزبك]؟"، وهو سؤال فاجأ الرّجل وترك علامات الدّهشة على وجهه قبل أن يستردّ أنفاسه ويسرع في تقديم الجواب عن سؤال كان يريد به إرباكه وضرب مصداقيّته أمام المتابعين للمناظرة. وتكرّرت تقنية المحاصرة بالسّؤال من هذا الطّرف أو ذاك في أكثر من موضع، وألحّ هولاند في طلب الجواب من خصمه قائلًا: "أجبني الآن"، فما كان من ساركوزي وقد أحسّ بوطأة الأمر

وخطورة السّؤال أن ردّ قائلًا: "لست تلميذًا لك يا هذا" وذلك حتّى لا يعلو عليه خصمه فيختلّ التوازن، ويخسر المناظرة جرّاء سؤال يأتيه من حيث يدري ومن حيث لا يدري. من هنا كانت صناعة السّؤال ركنًا مهمًّا من أركان صناعة الحِجاج في المناظرة السياسيّة.

3. الاستدراج بالسّؤال

معلوم أنّ السّؤال هو طلب العلم بشيء غير حاصل وفق الطلب، فهو ملفوظ دالّ يُنجز بغاية الحصول على معلومة ما أو التأكّد من صحّتها[49]، والحقيقة أنّ هذا الصّنف من الأسئلة قد كان عماد المناظرة، فالمنشّطان والمتناظران والجمهور جميعًا يلتقون عند طرح السّؤال المتعدّد حول برنامجي الرّجلين المتسابقين على رئاسة فرنسا وحول تفاصيل تصوّرهما لواقع فرنسا في مختلف المجالات ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا.

ولكلّ نهجه في الإجابة، في طريقته في البيان والتّحليل والإقناع، لكنّ الملاحظ أنّ عددًا مهمًّا من الأسئلة، التي طرحها المتنافسان أحدهما على الآخر أثناء المجادلة، لم تكن تنتمي إلى ما يُسمّى بالسّؤال الاستخباري، بل كانت تندرج ضمن ما يمكن أن نسمّيه بالسّؤال المِحجاج الذي يهدف إلى إحراج الطّرف المسؤول، وإقامة الحجّة عليه، فالسّائل يختار الوقت المناسب والسّياق المشكلي والمقامي المناسب ليثير السّؤال وليطلب الإجابة من الطّرف المقابل فورًا وعلى موجات الأثير، ولا يترك لخصمه الفرصة للمناورة أو للهروب إلى الأمام أو للخروج عن موضوع السّؤال، والمراد إرباك المنافس، واستنطاقه على جهة

[49] ورد في معجم **لاروس** تحديد مفهوم السؤال على النّحو التالي: "السؤال: طلب منجز بغرض الحصول على معلومات أو التحقّق من معارف"، انظر: *Le Petit Larousse*, p. 842.

السّرعة في مسائل دقيقة، والغاية هي إحراجه أو مفاجأته بما يعلم وبما لا يعلم. وهذا النّهج في السّؤال يندرج ضمن ما يمكن أن نسمّيه المحاججة الاستفهاميّة التي تقوم على طرح السّؤال المفاجئ وتوليد الإجابة عنه من ردود الطرف المنافس، فإن هو أجاب أقنع أو أقام الحجّة على نفسه، وإن هو تردّد أو تهرّب من الجواب عن جهة التّصريح كان موصوفًا بالعاجز في رأي الجمهور المتقبّل للمناظرة.

وقد نهج هذا النّهج في السّؤال كلّ من ساركوزي وهولاند في عدّة مواقف تواصليّة، فعلى سبيل الذكر لا الحصر، يمكن أن نشير إلى استهجان ساركوزي مقارنة بعضهم بينه والدكتاتور الإسباني فرانسيسكو فرانكو، وتشويههم له مقابل سكوت هولاند وعدم إدانته لذلك علنًا، فقد ساءله ساركوزي أكثر من مرّة قائلًا: "هل هذه هي الرّوح الجامعة التي تتحدّثون عنها؟ هل أدنتم هذا الخطاب الباعث على الشّعور بالصّدمة". كما يسترسل مستفسرًا على سبيل التوبيخ والإنكار: "هل تقتضي الرّوح الجامعة أن يدعو رئيس أوّل نقابة عماليّة في فرنسا "المجلس العام للعمّال" إلى دعم المرشّح الاشتراكي في خرق واضح لكلّ التقاليد النقابيّة؟".

وفي سياق التّمثيل على السّؤال المحجاج، نذكر محاصرة هولاند لخصمه بعدد من الأسئلة المحرجة التي لم يجد منها مهربًا، وفي مقدّمتها علاقته ببرلسكوني، وانضواؤه معه تحت راية الفصيل الحزبي نفسه على الصّعيد الأوروبي، فقد ساءله هولاند في هذا الشّأن أكثر من مرّة قائلًا: "أليس برلسكوني منتميًا إلى حزب الجبهة الشعبيّة لأوروبا PPE؟، ألست معهم في الحزب نفسه؟" وألحّ في طلب الجواب قائلًا: "أجبني عن سؤالي". وقد ضجّ ساركوزي بتلك الملاحقة الاستفهاميّة الحِجاجيّة، فردّ على سائله في لهجة قلقة، ساخرة، مضحكة في آن قائلًا: "لست تلميذك. سأجيبك لاحقًا"، وفي ذلك إحساس بوطأة السّؤال ومحاولة للهروب من الإجابة لخشية ساركوزي من الإقرار بعلاقته برجل معروف بفساده الإداري والسّياسي واسمه برلسكوني.

من هنا نتبيّن أنّ السّؤال لا يقف عند مطلب الاستخبار في المناظرة السياسيّة، بل يتعدّى ذلك ليستقيم أداة فعّالة وتقنية إستراتيجية مهمّة يعتمدها السّائل ليقيم الحجّة على خصمه ويدفعه نحو مجاهل الردّ أو الصّمت أو الهروب إلى الأمام.

4. تبئير الخطاب

نعني بتبئير الخطاب في المناظرة السياسيّة توجيه الحوار نحو مشاغل معيّنة، ومركزة الجدل حول دوائر اهتمام مخصوصة دون غيرها على نحو يسهم في توجيه انتباه المتلقّي إلى أمور دون أخرى، والملاحظ من متابعة المناظرة التي جدّت بين نيكولا ساركوزي وفرانسوا هولاند أنّها قد ركّزت أساسًا على قضايا الشّأن الدّاخلي للفرنسيّين، وهو أمر ينسجم مع طبيعة الفضاء التاريخي، والمجال الاجتماعي الذي تمّت فيه وقائع المناظرة بين الطّرفين، فطبيعة الحدث ساهمت في تشكيل محتوى الجدل وبنيته وفق اقتضاءات الزّمان ومعطيات المكان، فصدور التناظر بمناسبة الانتخابات الرئاسيّة جعل المرشّحيْن كليهما يهتمّان بطرح قضايا آنيّة محلّية ذات علاقة بالواقع اليومي للمواطن من قبيل الأزمة الاقتصاديّة، ومشكلة البطالة ومتعلّقات الهجرة "فيما غابت قضايا السياسة الخارجيّة عن السّجال الانتخابي، وإن حضرت فهي تقارب وكأنّها قضايا محلّية"[50]. وبذلك "جاءت مكانة العالم ضئيلة [في المناظرة] على الرغم من دوليّة

---

[50] عبدالنّور بن عنتر، "سياسة فرنسا في عهد هولاند... بين الاستمراريّة والتّغيير"، الدّوحة، مركز الجزيرة للدراسات، 7 أيار / مايو، 2012، ص 2، انظر:

http://studies.aljazeera.net/reports/2012/05/201257132039483995.htm

وفي السياق نفسه راجع: "بعد فوز الاشتراكيين، هل تتغير سياسة فرنسا العربيّة؟"، الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 3 تموز / يوليو 2012، انظر:

http://www.dohainstitute.org/release/16102c1c-9b55-4a96-988a-0fe24f3e1c54

أبعاد هموم الدّاخل الفرنسي وامتداداته الخارجيّة"[51]. ويمكن تفسير ذلك بسببين على الأقلّ، الأوّل أنّ القضايا الداخليّة هي قضايا خلافيّة بين الرّجلين، فلكلّ مقاربته في حلّها ممّا يجعل المبادرة بتناولها وجعلها في محلّ بؤرة الاهتمام مساهمًا في تمييز مرشّح عن آخر، محقّقًا لمطلب التقرّب من النّاخب الفرنسي قصد استمالته ولكسب نصرته، والسّبب الثاني متمثّل في أنّ خيارات السياسة الدوليّة هي خيارات تنجزها فرنسا بمعيّة شركائها في الاتّحاد الأوروبي والحلف الأطلسي، ولا ترتبط بالضرورة بالشّأن الدّاخلي، يُضاف إلى ذلك أنّ وجهات النّظر بين الطرفين تتقارب في مستوى التعاطي مع عدد من القضايا الإقليميّة والدوليّة، من ذلك الأزمة الاقتصاديّة في اليونان، ومفاوضات السلام في الشّرق الأوسط وأحداث الرّبيع العربي، كما أنّ كلًّا منهما مصرّ على رحيل بشار الأسد عن حكم سورية، وعلى ضرورة مكافحة الإرهاب الدّولي، وبذلك فالتّماثل في هذه المقامات جعلها من قبيل المفروغ منه، لذلك لم تجد حظّها من التدبّر والتّدافع والنّقاش على نحو مسهب في مناظرة التسابق على الرئاسة.

وهناك مستويات أخرى لتبئير الخطاب في المناظرة لعلّ أهمّها حرص هولاند على إبراز الحصيلة السلبيّة لمنافسه أثناء ولايته الرّئاسيّة؛ فكثيرًا ما ركّز الحوار على مساءلة ساركوزي عن الإجراءات التي اتّخذها في مجالات شتّى أثناء حكمه فرنسا خاصّة ما تعلّق بسياساته الغربيّة ومواقفه من المهاجرين، ووعوده بحلّ مشكلة البطالة وزيادة نسبة النموّ، وعدم تحقيقه لتلك الوعود، وغاية هولاند من هذا التّبئير لحكم مناظره هي إقامة الحجّة عليه والكشف عن عجزه عن الاستجابة لمطالب الفرنسيّين، وقصوره عن تحقيق آمالهم في الرّفاه والاستقرار والنموّ. وفي الإطار نفسه، كان ساركوزي ميّالًا أكثر من مرّة إلى

[51] عنتر، "سياسة فرنسا في عهد هولاند".

إظهار هولاند في موقع غير الخبير بشؤون السياسة الدوليّة، وغير العليم بواقع فرنسا وكيفيّات إدارتها، والمراد بيان خطورة تسليمه مقاليد قيادة البلاد.

وبذلك فالتّبئير تقنية حِجاجيّة إستراتيجية اعتمدها الطّرفان، قصد توجيه النّاخب الفرنسي نحو مسائل دون أخرى، وقصد التحكّم في سلوكه الانتخابي وكسب صوته وتحويله من محايد إلى مناصر.

خامسًا: لغة الخطاب في المناظرة السياسيّة

اللّغة، باعتبارها نظام تواصل، يتكوّن من الوحدات الدّالة المعبّرة عن المفاهيم والتصوّرات والمسمّية للأشياء والظواهر، هي جهاز تعبيرّي غير محايد في المناظرة السياسيّة، فاللّغة في هذا الجنس من الكلام حمّالة لخلفيّة أيديولوجيّة، ومُخبرة بموقف الأنا والآخر من مسائل خلافيّة. لذلك كانت المناظرة مفيدة على حدّ تعبير فرانسوا هولاند لأنّها بيّنت حجم الاختلافات على مستوى السياسات الاقتصاديّة والاجتماعيّة للطّرفين، فلكلّ متناظر مشروعه[52] المخصوص وآليّاته الذاتيّة في تقويم الواقع واستشراف المستقبل. ولكلّ متناظر أدواته اللغويّة المميّزة في تقديم مشروعه وإقناع النّاخبين به. والملاحظ من خلال قراءتنا لبنية الخطاب اللّغوي في مناظرة التّسابق على الرّئاسة بين هولاند وساركوزي وجود نقاط اختلاف ونقاط تماثل بين الطّرفين في مستوى التعبير الحِجاجي، ففي مستوى نقاط التماثل، يمكن أن نذكر التقاء الرّجلين عند حسن اصطفاء العبارة واعتماد التكرار ولزوم الأسلوب المباشر والميل إلى المشافهة البليغة.

[52] "هذه المناظرة كانت مفيدة، فقد بيّنت اختلافات في مستوى السّياسات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والجبائيّة، فليس لنا المشروع نفسه".

1. في اصطفاء العبارة وبلاغة الخطاب الشّفوي

من اليسير على الباحث أن يتبيّن في هذه المناظرة سلاسة العبارة لدى الطّرفين وطلاوة الكلام عند كلّ منهما، فالرّجلان متمكّنان من لغة شارل بودلير (الشاعر والناقد الفني الفرنسي) أيّما تمكّن، ولا نجد في التعبير عند كلّ منهما تردّدًا، أو تبعثرًا، أو لعثمةً، فاللّغة أسلمت لهما قيادها، والكلمات يأخذ بعضها برقاب بعض، فترد الجمل مسترسلة سيّالة، معبّرة عن القصد في غير تكلّف. وفي ذلك دليل على أنّ كلًا منهما يعي ما يقول، ويحسن ترجمة أفكاره بما توفّره له اللّغة الخطابيّة السياسيّة من عبارات، فقد تعدّدت السجلاّت المعجميّة للجدل بين الطّرفين، فمنها ما اتّصل بالهجرة والاقتصاد، ومنها ما تعلّق بالمفاعلات النوويّة والسياسة الخارجيّة، ومنها ما دار حول التنمية والحدّ من البطالة، ومنها ما كان عن التربية والشراكة الفرنكو–أوروبيّة. وتَعَدُّدُ المعاجم دالّ على سعة اطّلاع الرّجلين على كلّ قضايا الشّأن الدّاخلي الفرنسي وعلى وعيهما بمستجدّات الرّاهن اللّغوي والمجتمعي في البلد. وهو ما ساهم في إحداث إلف بينها وبين المتقبّل الفرنسي باعتبارهما يوظّفان لغة المتقبّل لتتحدّث عن مشكلاته وأحلامه، ولتمارس عليه سلطة الإغواء والاستقطاب[53]، فحسن اصطفاء العبارة ورصف الكلمات على نحو مخصوص يساهم في تعزيز الحضور البياني والبلاغي للمتكلّم من ناحية، وفي تعزيز مطلب التأثير في المتلقّي من ناحية أخرى، " فتستدعى الكلمات قصد تعزيز الحجّة والارتقاء بها من كونها واهية مملّة لتصبح مقنعة آسرة"[54]. والمتكلّم البليغ، إذ يتمهّر في فنون القول، يفعل في المتلقّي فعل السّحر، فيستطيع بما يصطنع من إفصاح بالحجّة، ومبالغة في وضوح الدّلالة، بلوغ أعلى مراتب التأثير العقلي والعاطفي في متلقّيه، بما يكفل

---

[53] الغرافي، "البلاغة والأيديولوجيا"، ص140–141.

[54] انظر:

Robert Mayer, *How to Win any Argument* (New Jersey: Career press, Franklin Lakes, 2005), p. 107.

تحصيل المتكلّم لمطلوبه في تكييف عاطفة السّامع وتعديل اعتقاده على نحو يستجيب لمقاصده ومراميه[55].

والمناظرة السياسيّة باعتبارها حدثًا خطابيًّا حِجاجيًّا، هي فعل بيانيّ يتوسّل تقنيات الإخراج البلاغي قصد لفت انتباه النّاس، وإيقاع التّأثير في المتقبّل. والمتابعُ لمناظرة المتسابقين إلى قصر الإليزيه يتبيّن غلبة بلاغة التّصريح على بلاغة التّلميح، فالرّجلان يتواجهان مباشرة ويخاطبان النّاس مباشرة، ويتّجهان مباشرة إلى صلب أزمات الاجتماع الفرنسي في العشريّة الثانية من الألفيّة الثالثة، فيتعاطيان مع الواقع بالنّظر والاقتراح والسّجال والنّقض والإبرام، لذلك كان الجدل صريحًا، شفّافًا، مباشرًا، مرسلًا، إذ قلّ فيه استحضار أساليب المدوّنة البلاغيّة التقليديّة من قبيل المحسّنات البديعيّة والتراكيب الاستعاريّة والتّعابير الإيحائيّة مثل التّشبيه والتّورية والكناية وغير ذلك... فمقام المشافهة لا يُتيح رصف الكلام على نحو يلتزم السّجع والجناس، ويتقصّد التّغميض أو الإلغاز، ذلك أنّ المقام هو مقام تواصل تفاعليّ، حيّ بين الأنا والآخر، في صيغة الإفراد وصيغة الجمع، باعتبار المناظرة ليست شأنًا كلاميًا ثنائيًّا، بل مُنْجَزًا تعبيريًّا يستدعي بالضّرورة الجماعة لأنّها سبب التّناظر وغايته.

ومن المهمّ في مخاطبة النّاس لزوم الوضوح، وسلوك مسالك الفهم لا الإبهام، تحقيقًا لقرب المأخذ، وتأمينًا لمطلب التّواصل الفعّال مع الجماعة. غير أنّ مجافاة النّسق البلاغي التّقليدي لا تمنع من التّنبيه إلى قيام المناظرة بين الرّجلين، في جملتها، على استعارة مفهوميّة[56] كبرى أسّس عليها كلّ طرف

---

[55] الغرافي، "البلاغة والأيديولوجيا"، ص141.

[56] في ماهيّة الاستعارة المفهوميّة، راجع: عبد الله الحرّاصي، **دراسات في الاستعارة المفهوميّة**، كتاب نزوى، الإصدار الثالث (مسقط: مؤسسة عُمان للصّحافة والأنباء والنشر والإعلام، نيسان/ أبريل 2002).

خطابه، فهولاند محكوم باستعارة تصوريّة مؤدّاها "أنا أُغيّر إذن أنا موجود"، فقد رصّف الألفاظ، وعدّد الحجج، ونوّع الأسئلة، ونظم الكلام، واعتمد التّكرار، وراوح بين النّفي والإثبات ليؤكّد اعتبار التّغيير في أبعاده المختلفة سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًا وثقافيًّا وأخلاقيًّا ضرورة وجوديّة بامتياز. والرّجل يستعير هنا روح الكوجيتو الدّيكارتي "أنا أفكّر إذن أنا موجود"، فالتّغيير هو نتاج التّفكير في الشّأن العامّ، وهو إكسير الحياة، والضّامن للوجود الفاعل في دولة الأنوار من منظور فرانسوا هولاند.

وتلك الرّوح التفكيريّة الدّيكارتيّة نفسها يستعيرها نيكولا ساركوزي ليفكّر بدوره في واقع الفرنسيّين ومستقبلهم بناء على استعارة مفهوميّة مركزيّة، يتبنّاها ويدافع عنها في خطابه الحِجاجيّ مؤدّاها "أنا أُرَاكِمُ جهدي وأستمرّ إذن أنا موجود"، فكينونة الفرد والجماعة هنا تُبنى وفق تصوّر يعتبر البناء الحضاريّ والتقدّم الجمعيّ رهين تركيم الجهد، وتطوير الرّاهن بدل تغييره جذريًّا، فساركوزي يفكّر في الشّأن الفرنسي العامّ من منظور تقديم الاستمراريّة على القطيعة، وترجيح الوصل على الفصل في مستوى الإصلاح وإعادة البناء. والجميع محكوم بهاجس الرّغبة في السّلطة من ناحية، والوعي بمقتضيات مسؤوليّة الرّئاسة من ناحية أخرى، فالطّرفان، على اختلافهما، يقدّمان نهجين متباينين في استصلاح الواقع المجتمعي الفرنسي المأزوم، والغاية واحدة، وهي إقناع النّاس بصواب الطّرح الذاتي للمتكلّم وتهيئة الدّرب لإجراء مشروع الأنا في الإصلاح التّغييري أو الإصلاح التّراكمي.

وهذه الرّغبة في خدمة الصّالح العامّ وفي استبطان الإرث التّنويري، تأسّست على بلاغة مفهوميّة تمثّلت في انخراط الطّرفين كليهما في مسار الفكر الجمهوري، ودفاع كلّ منهما عن الهويّة العلمانيّة للدّولة، وتنافس الرّجلين في الذّود عن قيم الاجتماع الدّيمقراطي بما يوجب من إقرار بالحرّيات العامّة والخاصّة، وترسيخ مبادئ المساواة والمواطنة والتّعايش السّلمي، وتكريس التعدديّة السياسيّة.

ومن ثمّ، فقد استعارت المناظرة السياسيّة بين المتنافسين من الفضاء الحداثي قيمها، وجعلته محضن روحها، والموجّه المنظّم لحركة الاختلاف بين المتجادلين. وعلى الرغم مما اعترى المناظرة بين الجانبين من حدّة في بعض الأحيان لم تفسد للودّ قضيّة، فإنّ الرّوح التفهّميّة المنفتحة على الطّرف المقابل قد ظلّت غالبة على نسق الحوار، وبدا المتناظران حريصيْن على التّمايز الهويّاتي على أساس برامجي، فكلّ طرف يجِدُّ في التّسويق الإعلامي لمشروعه السّياسي/ العمراني، ويغتنم المناظرة المتلفزة للفعل في الجمهور كما يشاء.

ومن المفيد هنا التّنبيه إلى حضور بلاغة التّسفيه في بعض ردهات المناظرة، فقد سعى الأخير في أكثر من موضع لاتّهام مخاطَبه بالافتراء ونعته بـ "الكاذب"، وذلك ذمّ يُراد به التّحقير والطّعن في مصداقيّة المنافس. وهذا الأسلوب البلاغيّ على أهمّيته في إرباك الطّرف المقابل، وتوجيه الرّأي العامّ نحو الشكّ في كفاءته ونزاهته، يبقى فعلًا لغويًّا/ معياريًّا لا يرقى إلى مقام النّقد الحِجاجي/ العقلاني للآخر، بل يسهم في تفقير المحتوى الدّلالي[57] لحدث المحاجّة، ويحوّلها إلى منبر للتّنابز بالألقاب، والتّقاذف بالأحكام القبليّة الجاهزة التي تحول دون التقدّم في فهم البعد التفاكري لواقعة التّناظر.

والتّسفيه، على بلاغته، ليس إلاّ فعلًا بيانيًّا، يروم الإفادة وتحويل المناظرة السياسيّة إلى عمل استعراضيّ/ استفزازي، يستهدف توليد ردّ فعل انفعالي/ وجداني من المنافس، ويثير الجمهور/ المتلقّي، ويدفعه إلى الخروج من الحياد إلى التّفاعل مع مجريات المناظرة، وذلك بتأييد التهكّم من الآخر، وتقزيمه، أو باستهجان ذلك والتّعاطف مع الشّخص المُسَفَّه.

---

[57] انظر:

Christian Le Bart, *Le discours politique, Que sais-je?* no. 3397 (Paris: PUF, 1988), p. 3.

والملاحظ أنّ فرانسوا هولاند قد بدا واعيًا بإستراتيجيّة التّفاعل مع خطاب التّسفيه، فرفض أكثر من مرّة الردّ على نعوت التّهوين التي وجّهها له ساركوزي، وحاول إشهاد النّاس على ارتجاليّة خصمه، وانخراطه في المقاربة الانفعاليّة المؤسّسة على الاحتفال بالذّات وشيطنة الآخر.

2. التّكرار

التّكرار ظاهرة لغويّة دلاليّة في الملفوظ، فهو لازمة بيانيّة تتكرر قصدًا لا اعتباطًا، ويراد بها غالبًا التأكيد أو النّفي، وتوظّف للإبراز ولفت انتباه المتقبّل إلى أمر ما. وبدا حضور ضمير المتكلّم مكثّفًا في خطاب الرّجلين، فقد تكرر في صيغة "أنا" عدة مرّات، وكان المراد مُرَكزَة القول والفعل حول الذات باعتبارها قادرة على تحمّل مسؤوليّة الرّئاسة وتبعاتها. كما دلّ على ذلك كلام ساركوزي في أكثر من موضع، وباعتبار الذات قادرة على "التّغيير" كما أنشأ ذلك هولاند مرّات عديدة في أثناء الحوار وفي ختامه. فالتّكرار هنا يراد به الإخبار بالقدرة على تحمّل وزر الرّئاسة وما تقتضيه من واجبات. وقد اقترن ضمير المتكلّم في أكثر من موضع بذكر أفعال مسندة للأنا خاصّة فعل "أريد" الذي تمحّض للتعبير عن قوّة الإرادة وشدّة العزم والسّعي في طلب المراد عند الرّجلين. وقد تعلّق فعل الإرادة عند هولاند بالرّغبة في "تغيير السياسة والمنهج"، والرّغبة في تجميع كلّ الفرنسيّين لا اليساريّين فحسب، بل كلّ المتعلّمين بقيم الجمهوريّة تحت يافطة الوطن[58].

والملاحظ هنا تكرار فعل "أغيّر" وفعل "أجمع" لثلاث مرّات في الجملة الواحدة، وبذلك فنحن إزاء تكرار موجّه يتقصّد لفت الانتباه إلى الأهداف الكبرى للمشروع الرّئاسي لهولاند، وفي مقدّمتها التأليف بين

[58] في الرّغبة في تجميع كلّ الفرنسيّين تحت يافطة الوطن، راجع قول هولاند: إنّي أريد أن أجمّع. أجمّع لا الاشتراكيّين واليساريّين فحسب كما قلتم. بل أجمّع كلّ المتعلّقين بقيم الجمهوريّة".

الفرنسيّين وتغيير واقعهم الحضاري وواقعهم المجتمعي نحو الأفضل. وقد عبّر هولاند عن تفاصيل ذلك التغيير وبيّن عزمه القطع مع السياسات البيروقراطيّة، والممارسات الإداريّة غير المشروعة التي شهدها عصر ساركوزي، وذلك لمّا كرّر عبارة "أنا باعتباري رئيس فرنسا..." لخمس عشرة مرّة على التوالي في ظرف دقيقتين، وألحق تلك العبارة بحمولة أيديولوجيّة برامجيّة عبّر من خلالها عن رغبته في تأسيس نظام رئاسيّ جديد، يُحلّ العدالة بديلًا من الحيف الاجتماعي، والمساواة بديلًا من المحاباة، والشفافيّة عوضًا عن المحسوبيّة، والتأليف بديلًا من الفرقة. ومعلوم أنّ التّكرار هنا هو تكرار قصدي/ حِجاجي يروم كشف هنات الخصم وإقامة الحجّة عليه، والتأسيس للذات عبر تقويض الآخر.

وفي السّياق نفسه، فإنّ ساركوزي قد وظّف آليّة التّكرار في أكثر من موضع، وبدا في موقع المريد في أكثر من مقام. وتبيّن ذلك خاصّة عندما كرّر عبارة "أريد" في خاتمة اللّقاء لأربع مرّات في تدخّل واحد، وموضوع الإرادة عنده التواصل مع الذين لم يصوّتوا له في الدّور الأوّل للانتخابات الرئاسيّة[59]، والحديث إلى الذين صوّتوا لفائدة مارين لوبان Marine Lepen، ووعدهم بأخذ مطالبهم القوميّة والحدوديّة في الاعتبار[60]، ومخاطبة أنصار فرانسوا بايرو François Bayron واعتبارهم على حقّ في المطالبة بالتّخفيض من المديونيّة، ووعدهم بالتجاوب مع طلبهم[61]. كما تعلّق تكرار فعل "أريد" بتوجيه الخطاب إلى الذين لم يصوّتوا، وحثّهم على ممارسة حقّهم في الاقتراع حتّى لا يسمحوا لآخرين بالتصويت بدلًا منهم.

---

[59] يقول ساركوزي: "أريد أن أتوجّه إلى كلّ الفرنسيّين الذين لم ينتخبوني في الجولة الأولى".

[60] "أريد أن أخاطب الذين صوّتوا لصالح ماري لوبان".

[61] "كما أخاطب منتَخِبي فرانسوا بايرو أيضًا".

وبذلك فقد تمحّض التكرار هنا لخدمة غرض انتخابي/ تعبوي باعتبار أنّ المراد استيعاب أكبر عدد ممكن من المناصرين، ومغازلة القاعدة الشعبيّة لليمين المتطرّف ويسار الوسط، وتحفيز غير المقترعين على التّصويت طمعًا في استمالتهم لتأييد المشروع الرّئاسي لساركوزي القائم على ضرورة الاستمرار وتحقيقًا للتقدّم المنشود.

3. الأسلوب المباشر

نعني به صدور الخطاب في المناظرة السياسيّة صريحًا، واضحًا، يتقصّد الموضوع/ الهدف أو المتلقّي الهدف مباشرة وفي غير تمويه أو تورية أو استعارة أو تلميح. والملاحظ أنّ الخطابيّة المباشرة غالبة على المنجز اللّغوي في اللّقاء الجدالي بين ساركوزي وهولاند، فقد سعى كلّ منهما لتفصيل القول في برنامجه السياسي والاجتماعي والاقتصادي في الولاية الرئاسيّة القادمة، وسعى كلّ منهما لتعرية أخطاء الآخر وتعداد زلاّته. وكان هولاند صريحًا في إدانة ساركوزي، واتّهامه بالمسؤوليّة عمّا آل إليه واقع الحال في بلده بعد خمس سنوات من تولّيه الرّئاسة[62] (2007– 2012)؛ فقد حمّله مسؤوليّة تدنّي معدّل النموّ وعجز الميزان التجاري، وتضخّم نسبة المديونيّة، وتزايد عدد العاطلين عن العمل، وافتراق الفرنسيّين بين غنيّ وفقير، وبين مهاجر ومقيم، وبين معتدل ومتطرّف، وبين يميني ويساري.

وبالمقابل كان ساركوزي صريحًا في نعت كلام هولاند بالكلاسيكي جدًّا، كما لم يتردّد في اعتباره غير خبير بشؤون الرّئاسة، ونعت كلامه بغير الدّقيق، بل بلغ به الأمر إلى حدّ نعت خصمه بالمفتري خمس مرّات على الأقلّ في أثناء المناظرة، واعتبار ادّعاءاته "محض كذب"، وكلّ ذلك يندرج في سياق ما

[62] في تحميل ساركوزي مسؤوليّة التراجع المشهود في فرنسا في مجالات شتى، راجع قول هولاند: "أنا أحمّلكم مسؤوليّة ما تعلّق بفترة رئاستكم، نحن نخرج من خماسيّة كانت فيها فرنسا مقسمة". وفي الإلقاء باللاّئمة على ساركوزي في خصوص عجز الميزان التجاري يقول هولاند: "لم يكن عجزنا التّجاري غير متوازن على هذا النّحو قطّ".

يسمّى بالنقد المقذع، والتحقير المباشر، وذلك قصد ضرب مصداقيّة المخاطَب لدى جمهور المتابعين للمناظرة. كما كان ساركوزي صريحًا في طلب ودّ أنصار اليمين المتطرّف، ودعوتهم للتّصويت له، وكذا فعل مع أنصار بايرو، ومع الذين قاطعوا التّصويت في الدّور الأوّل. وفي الإطار نفسه، كان هولاند صريحًا في تخيير الفرنسيّين بين استبقاء نيكولا ساركوزي، وهو ما يعني استمرار عصر البيروقراطيّة والفساد كما وصفه، وبين التصويت للتّغيير، طلبًا لبناء مجتمعي أفضل وأداء اقتصادي أحسن[63].

وبذلك فالأسلوب المباشر هو أقصى درجات الخطاب السياسي تعبيرًا عن الانحياز لموقف، وردّ موقف آخر، وهو نهج في التعبير الحِجاجي، يعرّي الخصم، ويُعلي من قيمة الأنا، ويسعى لتوجيه إرادة المتلقّي نحو الاصطفاف خلف متناظر دون آخر، وخلف مشروع رئاسي دون سواه.

والتقاء ساركوزي وهولاند عند حسن اصطفاء العبارة واعتماد التّكرار والأسلوب المباشر في التواصل مع المتلقّي النهائي، لا يحول دون التنبيه إلى مدى التباين بينهما في مستوى استحضار بعض الخصائص الواسمة للغة الخطاب السياسي لكلّ منهما، ولعلّ أهمّ تلك الخصائص اللسانيّة الدّلاليّة الفارقة تتمثّل في تراوح اللّغة في خطاب الرّجلين بين النّفي والإثبات، وبين نبرة الطمأنة وهاجس التخويف وبين مطلب الجمع وخيار الاستثناء.

4. في لغة النفي والإثبات

تتأسّس المناظرة السياسيّة أساسًا على أطروحتين مختلفتين إلى حدّ التقابل في بعض الأحيان، ويسعى المتناظران كلّ من جانبه لإقرار أطروحة يتبنّاها ويدافع عنها، ودحض أطروحة يرفضها ويحتجّ

[63] يقول هولاند: "هذا هو الخيار المعروض [على النّاس] يوم الأحد. المواصلة معكم نيكولا ساركوزي أو التّغيير".

على بيان تهافتها، وبذلك فالموقف التواصلي يقتضي نفي رأي وإثبات آخر. والملاحظ في مناظرة ساركوزي/ هولاند انصراف كلّ منهما إلى إثبات أحقّيته بالرئاسة، ونفي جدارة الآخر بها.

وقد أسّس الأوّل أطروحته على ضرورة الاستمرار، وبنى الثاني أطروحته على معارضته الاستمرار والدّعوة إلى التغيير، وتعلّل كلّ طرف في مقامات النفي والإثبات بحجج شتّى تراوحت بين الواقعيّة والعلميّة والسلطويّة كما بيّناه سلفًا، فقد عضدَ النّفيَ نحوٌ تبريريّ، وواكبَ الإثباتَ نهجٌ تقريريّ حِجاجي، تخلّل جدل الرّجلين في ملفّات شتّى تشغل بال الفرنسيّين.

ويتبدّى للدارس، من خلال متابعة نسق الجدل في المناظرة أنّ نيكولا ساركوزي قد استأثر في غير اختيار منه بموقع النّافي بامتياز، فهو ينفي عن خصمه صفة الصّدق والمصداقيّة، وينفي عن نفسه وزر المسؤوليّة في ما آل إليه وضع البلاد بعد خمس سنوات من ولايته الرئاسيّة، وظهر ساركوزي هنا في موقع من ينفي عن نفسه مسؤوليّة تزايد عدد العاطلين عن العمل، ويبرّر ذلك بفشل المنوال التشغيلي الذي ارتآه سابقوه، وينفي عن نفسه العجز الحاصل في الميزان التجاري وفي تراجع معدّل النموّ وتفاقم المديونيّة، معلّلًا ذلك بوطأة الأزمة الاقتصاديّة العالميّة، كما نفى عن نفسه شبهة أن يكون رئيس الأغنياء[64]، وتهمة تكريسه سياسة ضريبة ترهق كاهل العمّال والمنتمين إلى الطّبقة المتوسّطة، وتزيد الغنيّ غنى والفقير فقرًا. كما نفى عن نفسه تهمة التحريض الطائفي على المسلمين، وعلّل ذلك برغبته في صوغ

[64] في نعت ساركوزي برئيس الأغنياء واتّهامه بالانحياز إلى الأثرياء، راجع:

Michel Pinçon, Monique Pinçon-Charlot, *Le président des riches: Enquête sur l'oligarchie dans la France de Nicolas Sarkosy* (Paris: 2010); Demonpion Denis et Léger Laurent, Tapie- Sarkozy, *Les chefs du scandale* (Paris: Pygmalion, 2009); Rély Renaud et Gassons Didier, *Sarkozy et l'argent roi* (Paris: Fayard, 2008).

إسلام على الطريقة الفرنسيّة، ورفضه التمكين للإسلام في فرنسا بشكل مطلق مشرّعًا لتكييف الإسلام وفق اقتضاءات الجغرافيا الحضاريّة الفرنسيّة.

كما نفى عن نفسه تهمة الانحياز لليمين، وتهمة الخلط بين انتمائه الحزبي ووظيفته باعتباره رئيس دولة، واستغلاله نفوذه لاستمالة رجال الأعمال قصد جمع الأموال لصالح الفصيل السياسي الذي ينتمي إليه.

وبذلك تعدّدت المواقف التواصليّة التي ظهر فيها ساركوزي في موقع المتّهم الذي يبذل جهده ليدافع عن نفسه، وليلمّع ماضيه السياسي، وليردّ ما علق به من تهم وشبهات هي نتاج الفترة الرئاسيّة التي قضاها في قصر الإليزيه، فقد بدت حصيلة الرّجل ثقيلة على حدّ تعبير هولاند[65]، وبدت المناظرة ساعة للحساب عسيرة، فبدل استثمار تجربته الرئاسيّة الماضية في إبراز مهاراته الديبلوماسيّة، وجهوده السياسيّة وبرامجه الاقتصاديّة ورؤاه للنّقد الذاتي وإستراتيجيّات تجاوز ذلك إلى تقديم البناء المستقبلي، بدا ساركوزي مشغولًا بتبرير أخطائه السابقة وشرعنة نهجه القديم في التعاطي مع الشأن المحلّي والدّولي.

وبالمقابل بدا هولاند في موقع من يُحاكِم خصمه من ناحية، وفي موقع من يمسك بزمام المبادرة ويضع الآخر في موضع المساءلة، فقد أثبت بلغة الأرقام نكوص ساركوزي عن وعوده التي قدّمها

[65] عبر هولاند عن ذلك: "وُصفت حصيلة نيكولا ساركوزي بأنّها ثقيلة بامتياز".

للفرنسيّين في حملته الرئاسيّة عام 2007، وفشله في إرساء منوال تنموي نافع للبلاد والعباد[66]، وعجزه عن تقديم حلول عمليّة استعجاليّة لمشكلات ملحّة من قبيل البطالة، والمديونيّة، والهجرة، وتوليد الطاقة.

كما كفّ هولاند عن نقد منافسه في شخصه وركّز على نقد سياساته وكان ينفي عن نفسه تهمة الكذب التي لاحقه بها ساركوزي عدّة مرات في أثناء المناظرة، وترفّع عن نعته بتلك العبارة على جهة التصريح، يضاف إلى ذلك أنّه لم يبرز في موقع من يردّ التهمة عن نفسه سوى في مواضع معدودة لعلّ أهمّها نفيه أن يكون نصيرًا للستالينيّة، ونفيه أن يكون محرّضًا على الإقصاء أو مؤيّدًا لدومينيك تروتسكان، ونفيه أن يكون قد تحالف مع الخُضْر لقاء إغلاق المفاعل النووي والتّضحية بمصير العاملين فيه. فقد فنّد تلك التهمة، وبرّر رغبته في إيقاف إنتاج الطاقة النوويّة في ذلك المفاعل بقدم تجهيزاته التي تعود إلى ثلاثين سنة خلت، وبوقوعه في منطقة زلزاليّة[67]؛ ممّا يشجّع على غلقه تأمينًا للسلامة وتفاديًا لأسباب الكارثة، واعدًا بتشغيل العاملين فيه في مواطن مهنيّة أخرى أو تعويضهم. وبذلك كان النفي والإثبات في خطاب هولاند مؤسّسًا على معقوليّة الحجّة وواقعيّة البديل.

5. لغة التخويف والطّمأنة

أسّس ساركوزي خطابه في جانب مهمّ منه على تصوير الواقع المشهود في العالم اليوم على أنّه خطير، فقد كرّر عبارة "خطير" لأكثر من مرّة في المناظرة، واعتبر المرحلة المعيشة على غاية من الدقّة

[66] راجع ما أورده هولاند من إحصائيّات تتعلّق بتفاقم المديونيّة (70 مليار يورو)، وعجز الميزان التجاري، وضعف معدّل النموّ (0.7% عام 2012)، وارتفاع عدد العاطلين عن العمل (مليون عاطل)، والمهاجرين (200 ألف مهاجر) في عهد ساركوزي. انظر متن المناظرة بين الرّجلين.

[67] يقول فرانسوا هولاند متحدّثًا عن قدم المحطّة النوويّة فيشنايم Fessenheim وضرورة إغلاقها: "إنّها قريبة من منطقة زلزاليّة، وهو ما يُعدّ في حدّ ذاته خطرًا".

لتزايد النّزاعات من ناحية، واستفحال الأزمة الاقتصاديّة العالميّة من ناحية أخرى، حتّى وصلت آثارها إلى عدد من الدّول الصّديقة لفرنسا من قبيل اليونان وإيطاليا وإسبانيا والولايات المتّحدة، فضلًا عن استمرار شبح الإرهاب في تهديد هدأة الفرنسيّين، والسّلم الاجتماعي في بلادهم، وذلك في ظلّ استمرار احتجاز الصحفيّين الرّهائن في يد تنظيم القاعدة في المغرب الإسلامي.

أمّا في الدّاخل فصوّر الرّجل الوضع أنّه يقتضي لزوم اليقظة وتوخّي الحذر، فبعض الظواهر داخل الاجتماع الفرنسي تندرج في حيّز الخطر على حدّ توصيفه أيضًا، فتزايد عدد المهاجرين واتّساع قاعدة المسلمين القادمين من دول شمال أفريقيا، وتنامي صعود الجماعات الهوياتيّة والطائفيّة ينذر بتهديد البناء المجتمعي الفرنسي، ويهدّد بضرب الهويّة العلمانيّة للدّولة وبتقسيم النّاس إلى متديّنين وغير متديّنين. وبذلك فالوضع خطير والتحدّيات عظيمة والمستقبل مخيف من وجهة نظره.

ولغة الترهيب الناعم هذه، لا ترد في خطاب الرّجل عبثًا، بل هي خيار بيانيّ، حِجاجيّ، إستراتيجي، استحضره ساركوزي ليوهم الفرنسيّين بأنّ الوضع الآني مشكلي، لكنّه أحسن بحكم خبرته إدارته والتحكّم فيه، والحدّ من خطورته المحتملة وذلك أثناء ولايته الرئاسيّة المنقضية (2007– 2012)، فقد قدّم الرّجل نفسه ضمنيًّا على أنّه قائد خارق، تحدّى صعوبات المرحلة على خطورتها، وحمى الاجتماع الفرنسي من مطبّاتها وانعكاساتها. فالمفهوم تصريحًا أو تلميحًا من خطابه أنّه قد كان صمّام الأمان في مرحلة عصيبة، فقد جنّب فرنسا ويلات الأزمة الاقتصاديّة العالميّة وخرج منها بأخفّ الأضرار بفضل سياساته التنمويّة الرّشيدة. كما يعتبر نفسه قد أحسن توجيه الحراك الاجتماعي، فتحكّم في سيل الهجرة العشوائيّة، ونظّم الهجرة الاقتصاديّة، وحدّ من مخاطر التمثّل الراديكالي للإسلام، مؤسّسًا لما يُسمّى بـ "الإسلام الفرنسي" L'Islam de la France، فحافظ بذلك على تقاليد النّظام الجمهوري لدولة الأنوار. وبذلك تصبح الساركوزيّة وفق هذا التصوّر ضرورة وجوديّة وحتميّة تاريخيّة يتعيّن استمرارها باعتبارها

الضامن للسّلام والواقي من الخطر الدّاهم. فيبرز ساركوزي بذلك الإخراج اللّغوي المفعم بالترهيب والتخويف في موقع الرّئيس المنقذ، أو المسيح المخلّص الذي يتعيّن استمراره واستبقاؤه حتّى يستمرّ الاستقرار والأمان والتوازن. وحتّى يتفادى الفرنسيّون خطرًا آخر اسمه تسليم مقاليد القيادة إلى رجل غير خبير بالرّئاسة ودواليبها خبرة ساركوزي بها. وبذلك يحتجّ ساركوزي على ضرورة استمراره بخطورة المرحلة، وبأنّه رجل المرحلة، وبذلك كانت اللّغة هنا غير بريئة أيضًا، بل سابقة للإضمار والترصّد في تصيّد ضعف النّاس واستثمار خوفهم من الرّاهن والمستقبل لاستدراجهم إلى تأييد بقائه، وذلك على سبيل العفويّة، أو على خلفيّة اتّقاء المكروه الدّاهم، والرّضى بالمكتوب القائم.

وعلى خلاف ذلك النهج في التعبير، يلاحظ الدّارس أنّ هولاند قد قلّل من خطورة تنامي النّعرات الدينيّة المتطرّفة في بلده، ووعد بالمحافظة على قيم الجمهوريّة والطّابع العلماني للدّولة، فطمأن بذلك الليبراليّين واستقطبهم من ناحية، واستتبع المسلمين وآمنهم من ناحية أخرى، مؤسّسًا لمقاربة تقرّ بضرورة تعايش كلّ المواطنين في كنف التسامح وفي ظلّ احترام سلطة القانون، فبدا ميّالًا إلى التأليف أكثر منه إلى الفرقة، وهو ما تجلّى على نحو أبين عند تقصّينا لملامح الجمع والاستثناء في لغة المناظرة السياسيّة.

على الرغم من وعيه بخطورة ما آل إليه وضع فرنسا اقتصاديًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا على عهد ساركوزي، بدا هولاند حريصًا على بثّ موجات التفاؤل في صفوف المتابعين للمناظرة، محاولًا مقاربة الواقع واستشراف المستقبل بعين موضوعيّة وأخرى إيجابيّة، تؤمن بضرورة الفعل، وبحتميّة التغيير قصد كسب معركة التنمية، ورفع التحدّيات الراهنة، وفي القادم من الأيّام. وذاك لا يكون إلاّ بإعادة الاعتبار للمواطن واسترجاع ثقته في مؤسّسات الدّولة ورجالاتها، والاستماع لكلّ الفرنسيّين من دون استثناء، لدعم إشعاع فرنسا اقتصاديًّا وعلميًّا وسياسيًّا، ولتأكيد مكانتها السنيّة في المشهد الحضاري الكوني. لذلك كانت

لغة هولاند لغة ذات طاقة تحويليّة، تأخذ النّاس من الخوف إلى الطمأنينة[68]، ومن الشكّ إلى برد اليقين، ومن التردّد والإحساس بالعجز إلى الإقبال والكدّ والسّعي إلى الفعل، ومن التشاؤم إلى الأمل[69]؛ أي الأمل في التغيير نحو الأفضل. ومعلوم أنّ اللّغة هنا غير محايدة أيضًا، فهي تخاطب نفوس النّاس، وتدغدغ انفعالاتهم وتستعطف قلوبهم نحو مشروع التغيير، باعتباره أطروحة تؤسّس للجديد وتقطع مع القديم، وتفتح الباب لاستقبال غد يتخيّله النّاس، أو يؤمنون بأنّه سيكون أفضل من راهنهم على عهد ساركوزي.

سادسًا: في بلاغة المقام والأداء في المناظرة السياسيّة

1. في الظّروف المقاميّة للمناظرة السياسيّة

نعني بالمقام المعطيات الحافّة بإنتاج الرّسالة اللغويّة، والمتعلّقة أساسًا بالمكوّنات الموضوعيّة الماديّة والمعنويّة المحيطة بالباثّ إبّان أدائه لفعل التّواصل، فقد جرت مناظرة ساركوزي/ هولاند في فضاء تلفزيّ مباشر وداخل ستوديو إخباري أشرف على تنشيطه اثنان من الإعلاميّين الفرنسيّين المحترفين هما لورانس فرّاري Laurence Ferrari ودفيد بوجداس David Pujadas اللّذين أحسنا توزيع الكلمة بين الطّرفين المتنافسين، وأسهما في طرح أسئلة خلافيّة أثارت تفاعل المتناظرين، ولفتت اهتمام حوالي 18 مليون مشاهد تابعوا وقائع المناظرة داخل فرنسا، وذلك عبر سبع قنوات تلفزيّة تولّت نقل وقائع تلك المناظرة التاريخيّة التي استمرّت زهاء الساعتين و56 دقيقة. وقد بدا ساركوزي وهولاند على علم

[68] طمأن هولاند الفرنسيّين في أكثر من موضع، وبيّن أن لا حاجة لبعث الخوف في نفوسهم، من ذلك قوله خلال المناظرة: "ليس هناك ما يدعو إلى التّخويف"، و"لا حاجة لزرع الخوف"، و"أنا لا أريد بثّ الخوف".

[69] يقول هولاند باعثًا الأمل في صفوف الفرنسيّين: "ما أتمنّاه هو أن يستعيد الفرنسيّون الثّقة والأمل".

باقتضاءات المقام المكاني والزماني، فكان كلّ منهما حاضرًا ببدلته السّوداء الأنيقة المحلاّة بربطة عنق على قميص أبيض، فكان اختيار للّباس في حلّته الرسميّة موحيًا بالقدر الجليل للمناظرة ومنسجمًا مع هيبة الرّئيس وما يقتضيه الترشّح للمنصب من أناقة ووقار[70]. وذلك سلوك مظهريّ مميّز، يستهدف الانسجام مع الصّورة النموذجيّة لشخص الرّئيس في أذهان أغلب النّاس، ويروم استمالة العيون باعتبارها الطريق إلى قلوب النّاخبين، فالظّهور في مظهر حسن يغري النّاظر بالمتابعة لا محالة.

كما أنّ ورود الخطاب على جهة المشافهة ساهم في جعل المشهد الحِجاجي حيًّا بتعدّد الأسئلة، وتواتر الاعتراض، وتباين الرّدود، والتّنافس في تقديم الحجّة، وتوظيف ملامح الوجه وحركات اليد وإشارات العين في التّعبير عن مواقف تواصليّة معيّنة وعن مواقف حِجاجيّة محدّدة. وبذلك عضد التّعبير الإشاري التّعبيرَ البياني/ البرهاني في البوح وطلب الإقناع.

والملاحظ أنّ المجادلة على علوّ شأنها قد دارت عمومًا في كنف الهدوء والاحترام المتبادل وإن ارتفعت وتيرتها في مواضع محدودة تخلّلها خاصّة تبادل التّهم بالكذب والتّزييف، فإنّها لم تبلغ درجة التشنّج الزّائد عن اللّزوم. فدقّة الموقف اقتضت رصانة من الطّرفين، وطبيعة المقام استدعت "موافقة أفعال القول لمقتضى الحال"[71]. وذاك أمر غير مستغرب في دولة درج مواطنوها على ديمقراطيّة التّفكير والتعبير، فالرّجلان يتحرّكان ضمن فضاء مدنيّ إعلاميّ عامّ موسوم بالحرّية والمسؤوليّة، فالعلاقة بين

---

[70] في أهمّية الحضور المظهري للرّئيس، راجع:

Glenn O'Brien, "Les candidats français sous toutes les coutures," *Courrier international*, hors-série: Tendances, Style et politique (Mars, Avril, Mai 2012), p. 4-6.

[71] هاجر مدقن، "آليّات تشكّل الخطاب الحِجاجي بين نظريّة البيان ونظريّة البرهان"، **مجلة الأثر**، مجلّة الآداب واللّغات، العدد 5 (ورقلة: جامعة قاصدي مرباح، آذار / مارس 2006)، ص192.

"المشافه وبين المستمع إليه تتضمّن شرطيْ النظاميّة والحرّية باعتبارهما شرطين ضروريّين يؤمّنان إمكان الإقناع" على حدّ قول فيليب بروتون[72].

وبذلك فالمحيط الاجتماعي والسّياسي الحافّ بواقعة التّناظر، باعتبارها حدثًا تواصليًّا، هو محيط يشجّع على التّفاعل، ويشرّع للتثاقف، ويفتح المجال وسيعًا للإبلاغ والحِجاج والإقناع، وتلك مطالب عليها تأسّست المناظرة السياسيّة، وسعى لتحقيقها المتناظران في ظلّ مناخ تواصليّ على غاية من التطوّر سياسيًّا وتكنولوجيًّا. فقد استغلّ الطّرفان المتقابلان التّقنيات الاتصاليّة الحديثة في التّعريف ببرامج كلّ منهما وفي السّعي لاستقطاب أكبر عدد ممكن من المناصرين، فوسائط الاتّصال الرّقمي المتعدّدة من تلفزيون، وحاسوب، وهاتف جوّال، وشبكة كانت جميعًا من المعطيات المقاميّة التقنيّة المساهمة في نشر المناظرة السياسيّة على أوسع نطاق، فسلطة الصّورة الناطقة كانت فاعلة في تقريب الرّجلين من النّاس، فهما بفضل الأنظمة الإعلامية المتعددة "الملتيميديا" يدخلان جيوب المشاهدين، ومنازلهم ومكاتبهم وسيّاراتهم دون استئذان، فالآلة التقنيّة السمعيّة البصريّة مساهمة في تفعيل التّناظر السياسي وتوسيع أثره في الجمهور.

---

[72] انظر:

Philippe Breton, “L’argumentation dans la communication,” Contribution presentée dans le cadre de la Journée des études “Usage et réception des médias,” 26 mai 1998, école normale supérieure de Fontenay- Saint Cloud, p. 5.

2. بلاغة الأداء في المناظرة السياسيّة

للخطاب التّلفزي المباشر طاقة سيميولوجيّة مكثّفة، تتعاضد فيها بلاغة الملفوظ مع تعبيريّة الحركة والصّوت، وإيحائيّة الفضاء الرّكحي في البوح بمحامل رسالة ما يروم الباثّ إيصالها إلى المتلقّي، وتحتمل دلالات شتّى يتأوّلها المتقبّل بحسب مرجعيّاته وأدواته الذاتيّة والموضوعيّة في القراءة والتّحليل والتّفكيك.

والمناظرة، التي نحن بصددها، انتظمت ضمن سياق مشهديّ علاميّ، معبّر، تعدّدت مكوّناته الأدائيّة وتنوّعت، خادمة لمقام المشافهة من ناحية، ولمطلب الإقناع الحِجاجي/ المسيَّس من ناحية أخرى. ويمكن أن نميّز في مستوى بلاغة الأداء بين ثلاثة مستويات هي مستوى الأداء الرّكحي، ومستوى الأداء الحركي، ومستوى الأداء الصّوتي.

أ. في بلاغة الأداء الرّكحي

يُعدّ الرّكح فضاء إعلاميًّا مشتركًا انتمى إليه المتناظران، وتطارحا الأفكار والمقترحات ضمنه، وبدا ستوديو العرض التّلفزي للمناظرة حيّا على الرغم من ثبات الصّورة، وقلّة حركة الكاميرا في أغلب الأحيان باعتبارها تواكب انتقال الجدال بين الطّرفين، وتفاعل كلّ منهما مع أسئلة المنشّطين المشرفين على اللّقاء.

ففي مستوى الفاعلين في المشهد التّلفزي، بدا ساركوزي وهولاند في موقع بطليْ اللّقاء بلا منازع باعتبارهما استأثرا بأكبر مساحة من الكلام، وتحرّرا من سلطة التقيّد بالمكتوب، واعتمدا الردّ الشّفوي المباشر على أسئلة المنشّطين على نحو أخبر بتمكّن الطّرفين من تقنيات التّعبير السّياسي من ناحية، وبقدرة على تمثّل الإشكاليّات الخلافيّة الرّاهنيّة داخل المجتمع الفرنسي من ناحية أخرى، وتقديم الرّأي الحِجاجي في شأنها، وقصر دور لورانس فرّاري ودفيد بوجداس على طرح الأسئلة الجوهريّة الملحّة والشّاغلة للفرنسيّين، وهو دور مهمّ دالّ، على انتماء المنشّطيْن لواقع النّاس، وقدرتهما على إثارة الجدال

بين المتناظرين في مسائل مصيريّة تتعلّق بالبطالة والمديونيّة والتعدديّة التعاقديّة والطّاقة النوويّة وغير ذلك من المسائل الخلافيّة المهمّة في المدينة الفرنسيّة اليوم. وحضور شخصيّتيْن فاعلتين في المشهد السّياسي الفرنسي قصد التّسابق على قيادة البلاد في فترة مهمّة من تاريخها الجمهوري حَدَث جلل، ساهم في صناعة الفرجة، وفي تأثيث المكان بوجهين ملآ الشّاشة وشغلا النّاس، ممّا أسهم على نحو فعّال في توجيه الجمهور نحو مشاهدة المناظرة التلفزيّة. وحضور منشّطيْن من الجنسين فيه تمثيل لجموع الفرنسيّين من الذّكور والإناث، وطرح لواجب مساءلة المرشّح للرّئاسة من جانب الرّجل والمرأة على السّواء باعتبار أنّ الرّئيس المرتقب يُفترض أن يكون رئيس جميع المواطنين الفرنسيّين.

والنّاظر في الإخراج التّلفزي للمناظرة يتبيّن أنّ بناء هذا المشهد لم يكن فعلًا بريئًا، بل كان فعلًا مقصودًا، ينسجم مع اقتضاءات المقام الحِجاجي والحدث السّياسي، فقد ارتدى الحاضرون بدلات كان اللّون الأسود اللّون الغالب عليها، فلبس كلّ من ساركوزي وهولاند والمنشّط دفيد بوجداس بدلة سوداء توسّطها قميص أبيض وربطة عنق زرقاء، ولبست لورانس فرّاري فستانًا أسود. وطغيان السّواد على المشهد الملبسي للجماعة راجع إلى ما يحمله هذا اللّون من رمزيّة في وعي النّاس ولا وعيهم، فكثيرًا ما يشير الأسود، بموجب عقد تداوليّ ضمني عفوي بين المشاهدين إلى "عوالم الواجب والضّرورة... والرّصانة والجدّ والاضطلاع بالمسؤوليّات الكبيرة ومواراة الانفعال"[73]، وتلك كلّها دلالات يستقطبها منصب الرّئاسة ومسعى الجدّ في طلبه لما يقتضيه من هيبة ووقار ودقّة في اختيار الكلام واتّخاذ القرار. أمّا الأبيض فلون اقترن في الضّمير الجمعي بعدّة دلالات من بينها اعتباره "عنوان البساطة والحكمة ورمز

[73] سعيد بنكراد، **مسالك المعنى** (اللاّذقيّة: دار الحوار للنّشر والتّوزيع، 2006)، ص63-64.

العناية... وصوت الامتلاك والتحكّم والتّعالي... وهو البداية الأولى، البداية الخالية من أيّ معنى، أو لحظة تتأسّس منها كلّ المعاني"[74].

وفي سيمياء الألوان يدلّ اللّون الأزرق الذي تلوّنت به ربطة العنق عند ساركوزي وهولاند على رغبة في الانطلاق والفعل الحرّ في العالم، فعلا بنائيًّا يعيد لفرنسا دورها الرّيادي في صناعة القرار إقليميًّا ودوليًّا؛ فالأزرق رفض أبديّ للواقع الموجود، المأزوم، وحلم هارب في عيون الحالمين بحياة لا تحكمها القيود[75]، والأزرق دالّ على الامتداد ورحابة الصّدر والتّعالي عن العوائق الذاتيّة والأنطولوجيّة، ودالّ على الاتّساع الذي جلاّه اتّساع فضاء الاستوديو موضع الحوار وتنافذ الأشكال المربّعة في جدرانه، وامتداد الرّكح الجدالي، وتسويره بصورتين كبيرتين لقصر الإليزيه الذي بدا مطلاًّ على المناظرة من الخلف، يحتضنها في رؤية بانوراميّة من فوق، حتّى كأنّه يُخبر أنّه مكان جامع للخلاف، مفتوح على الحوار والتّسابق، ولا نعرف من سيفوز بمفاتيحه في دولة ديمقراطيّة لا تؤمن بالوصاية على النّاس، بل تترك لهم حرّية اختيار من يحكمهم.

وما وضع فرانسوا هولاند نظّارته الشفّافة القانية، إلاّ مكوّن من مكوّنات الهويّة البصريّة عنده، فكأنّ الرّجل يريد أن يقول للفرنسيّين إنّه يرى الواقع والمستقبل بدقّة، وأنّه قادر على إجراء التّغيير المنشود. والنظّارات في بعدها الحسّي المادّي مُخبرة بامتياز بافتراق هولاند عن خصمه ومجافاته له، فهو يريد أن يقول للآخر مطلقًا وللخصم حصرًا بأنّه يرى ما لا يرى الآخرون، فتستحيل الهويّة البصريّة سندًا للهويّة السياسيّة، وحجّةً رافدةً لمطلب التّغيير.

---

[74] المرجع نفسه، ص65.

[75] المرجع نفسه.

ب. في بلاغة الأداء الحركي

حركات الجسد من قبيل الإشارة والإيماءة والالتفاتة وهزّ الكتف، وتوزيع النّظرات، وطأطأة الرّأس، واستقامة الهيئة وغير ذلك من تعبيرات هي علامات لغويّة دالّة لكنّها غير منطوقة، يستحضرها المتكلّم متى عزّت عليه اللّغة بمفرداتها، ولم تسعفه بتوصيف المراد، ويستدعيها الباثّ متى أراد تأييد المنطوق بالعلامة الحركيّة، وتعزيز الكلام بالإشارة الجسديّة. ويتجلّى ذلك خاصّة في مقامات التّناظر السياسي، فكلّ خطيب يحاول أن يُغني فضاءه الرّكحي بمهاراته الإشاريّة الدّالة من حين إلى آخر.

وفي مناظرة الحال، لا ندّعي الإحاطة بكلّ متعلّقات سيميولوجيا الأداء الحركي ودلالاته، ولكنّنا نحاول صوغ استنتاجات إجماليّة تتعلّق أساسًا بالوصل بين التّعبير الإشاري وبين الفعل الحِجاجي في المناظرة السياسيّة، فقد بدا هولاند على امتداد ساعات الحوار منشرح المحيّا، منبسط الوجه، يحدّق بنظرات واثقة في عينيْ منافسه، وكانت عيناه تتحرّكان بسرعة نحو المنشّطين ونحو خصمه ونحو الكاميرا في انسجام مع مقتضيات لحظة التّواصل الشّفوي مع الآخر، وكان ميّالًا إلى توظيف حركة اليدين خاصّة قصد التّفسير والتّفصيل، وكانت حركة جسده رصينة، وغير مرتجلة، متوافقة مع تمثّله الذّهني للواقع وتصوّره للمستقبل، حتّى إنّ حضوره المشهدي لم يغلب عليه الانفعال. فعلى الرغم مما لقيه من جانب ساركوزي من اتّهام بالكلاسيكيّة، وتقديم معلومات خاطئة، فإنّ ذلك لم يفقد هولاند هدوءه ورصانته، ولم يدفعه إلى الوقوع في شرك العنف السّياسي اللّفظي أو الإشاري. ويلاحظ المشاهد أنّ الرّجل قد حافظ على استقامة جلسته على كرسيّ المناورة، ولم يطأطئ الرّأس على جهة التردّد أو التفكّر أو على سبيل الهروب من أسئلة المنافس، بل بدا ممتلئًا بقناعاته، ممسكًا بزمام السّؤال والمبادرة لإحراج الخصم واستدراجه نحو الإقرار بتحمّل المسؤوليّة في خصوص ما آل إليه واقع المجتمع الفرنسي من تدهور شمل الحياة الاقتصاديّة خاصّة.

وبالمقابل بدت على وجه ساركوزي أثناء المناظرة علامات الإرهاق والخوف المبطّن من الهزيمة، ولم يكن يدقّق طويلًا في عيني مناظره، بل بدت النّظرات الصّادرة عنه مشتّتة بين المخاطَب وبين الانكسار نحو طاولة النّقاش، على نحو تزامنت معه حركة طأطأة الرّأس أكثر من مرّة. وكان ساركوزي عند مبادرته بالكلام يسترسل في الخطاب لكنّه لا يكتفي بالتّعبير عن المراد باللّفظ، بل يتجاوز ذلك إلى استحضار ما أمكن من الحركات الجسديّة من قبيل هزّ الكتفين، وتحريك الحاجبين، والإشارة باليد يمينًا وشمالًا، فكان ديناميّ الحضور على الرّكح، يتوسّل كلّ أساليب التّعبير الجسدي للحِجاج على صحّة تصوّره ولنقض أطروحة خصمه (خاصّة في البداية عند ردّه على وعد هولاند الفرنسيّين بأن يكون الرّئيس الجامع الموحّد لهم بعد الفرقة).

ومع أهمّية هذا الجهد الحركي التّعبيري، فإنّ كثافته توحي بأنّ ساركوزي قد وضع نفسه من حيث يدري أو من حيث لا يدري في موقع المتّهم الذي ظلّ يسعى طوال المناظرة إلى البرهنة على براءته من تهم شتّى وجّهها إلى خصمه من قبيل فشل سياسته التنمويّة، وفساد منواله الاقتصادي وخيارات حكومته في الإصلاح الاجتماعي والإداري والتّربوي. وانحسار الرّجل في زاوية المتّهم وقبوله الضّمني بهذا الدّور جعله مرتبكًا في مستوى الأداء الحركي، محكومًا بالانفعال من حين إلى آخر، ميّالًا إلى مهاجمة خصمه بطريقة تميل إلى إصدار الأحكام المعياريّة الجاهزة بديلًا من مقارعة الحجّة بالحجّة. وقد انعكس الارتباك الحركي في مستوى انحناء ساركوزي أثناء الكلام، وعدم استقراره فوق كرسيّه حتّى نكاد نظنّ بأنّه سيقف من حين إلى آخر، أو أنّه سيفرّ من مواجهة خصمه فكان في كثرة حركاته الإشاريّة، مُخبرًا بحالة من التوتّر وعدم القدرة على تفادي أخطاء المرحلة السابقة من حكمه وإقناع الجمهور بتجديد العهد له في ولاية أخرى. لذلك تعدّدت حركات اليد وإيماءات الجسد وملفوظات اللّسان عنده، وبدا إذ يتكلّم من فوق كرسيّه في بعض الأحيان كمن يقف على ربوة زئبقيّة متحرّكة لا يكاد يقرّ لها قرار.

ج. في بلاغة الأداء الصّوتي

يُعدّ الأداء الصّوتي للخطاب ركنًا إعلاميّا مهمًّا في التّواصل اللّغوي مع المتلقّي، فطريقة التّصويت، وكيفيّة إيراد الكلمات والنّطق، بها ونسق التلفّظ بالعبارة، وتراوح الصّوت بين العلوّ والانخفاض، كلّ ذلك معدود في حيّز المؤثّرات الصوتيّة التي تواكب التّعبير اللّفظي عن الغرض، وتقدّم انطباعًا أوّليًا عن الحالة النفسيّة والفكريّة للباثّ، وتساهم في إنتاج ردّ فعل معيّن من جانب المتقبّل.

والملاحظ في مناظرة فرانسوا هولاند ونيكولا ساركوزي أنّ الأداء الصّوتي قد واكب المُنْجَز الحِجاجي في اللّقاء، وعكست طريقة التّصويت لدى الطّرفين مدى قدرة كلّ منهما على إدارة الحوار، وعلى ضبط النّفس، وإقناع المتفرّج بوجهة نظره. ولا ندّعي هنا تفصيل القول في هذه المسألة من كلّ جوانبها لأنّ دراسة الأداء الإعلاميّ الصّوتي للمناظرة ومتعلّقاته يمكن أن تكون موضوعًا مستقلًا بنفسه يقتضي الكثير من التّدقيق، ومراجعة خطاب التّناظر من أوّله حتّى منتهاه على امتداد ما يقرب من ثلاث ساعات، فيجري تحليل نبرات الصّوت ودلالاتها عند المتناظرين، ومدى تعبيرها عن ذات المتكلّم وفعلها في المتلقّي المفترض. وهو أمر يضيق به مقام هذه الدّراسة باعتبارنا نركّز أساسًا على الأداء الصّوتي بوصفه خادمًا لمطلب الحِجاج، ولا نريد دراسته في أبعاده الأخرى على جهة الإطلاق.

يمكن أن يخرج المتابع للمناظرة بانطباع عامّ مؤدّاه أنّ صوت فرانسوا هولاند على امتداد لحظات المواجهة قد كان صوتًا يغلب عليه الهدوء والرّصانة، وبدا صادرًا عن شخص واثق بنفسه وعلى يقين ممّا يقول، ويتقمّص دور الرّئيس بامتياز، تراه لا يتعجّل في الحكم، ولا يأبه بالاستفزاز، بل يتعامل معه بهدوء مَنْ يترفّع عن الإساءة أو من يحاول ردّ الحجّة بالحجّة، فحتّى في لحظات تعلّق التّهمة بشخصه مباشرة (مثل اتّهامه بأنّه الابن المدلّل لفرانسوا ميتران، واتّهامه بالسّكوت عن خطابات الإساءة والتّخوين الموجّهة لساركوزي، ونعته بالكذب...) لم يكن هولاند في موقع من يستشيط غضبًا، بل بدا ميّالًا إلى الردّ بالنّفي

ومطالبًا منافسه بتقديم الدّليل على ما يوجّهه له من تهم، تبقى متهافتة في نظره ما لم يُؤيّدها المتكلّم بالحجّة.

وهذا الهدوء في التّعبير عن المراد وفي ردّ الفعل على الطّرف المقابل لا يمنع من الإشارة إلى أنّ صوت الرّجل يرتفع في بعض الأحيان، ويتّضح ذلك خاصّة عندما يعمد إلى توظيف تقنية النّبر[76] لإبراز أمر مَا أو لإظهار طرف ما، فيكفي أن نشير هنا إلى توظيفه الضّمائر على نحو مخصوص، فنغمة صوته ترتفع عندما يعبّر عن الأنا الفاعل والقادر على تحمّل مسؤوليّة الرّئاسة، فقد كان ترديد هذه العبارة "أنا باعتباري رئيسًا"، بلهجة عالية النّبرة عدّة مرّات مُخبرًا بشخصيّة قياديّة تتأهّب للفعل، وتستعدّ لتحمّل مسؤوليّة الرّئاسة، وتنطق بذلك بصوت جهوريّ، مسموع، فيه تعبير عن الثّقة بالنّفس، وعن إشهاد للعالم على الذات. وفي ارتفاع الصّوت وتتالي الجمل على نحو سريع ومرتّب، لا يعتريه التوتّر والارتباك بيان لقدرة المتكلّم على تمثّل محمول رسالته اللغويّة من ناحية، وسعيه لشدّ السّامع إلى محتوى اللاّزمة الصوتيّة "أنا باعتباري رئيسًا للجمهوريّة..."، من ناحية أخرى، وهو ما أضفى على الخطاب في بدايته وفي نهايته إيقاعًا موسيقيًّا مخصوصًا، يغري بمتابعة ملفوظ الرّجل.

وترتفع لهجة هولاند أيضًا عندما يوجّه التّهمة مباشرة إلى ساركوزي، فيبرزه في موقع المسؤول الرّئيس عمّا آل إليه وضع البلاد من تدهور، وعمّا آل إليه واقع الاجتماع الفرنسي من تشتّت وانقسام، مستعملًا ضمير المخاطب "أنتم" ليؤكّد أنّ المسؤول حصرًا عن تردّي الأوضاع هو أساسًا رئيس الدّولة

[76] "النّبر عند العرب ارتفاع الصّوت. يقال نَبَر الرّجل نبرةً إذا تكلّم بكلمة فيها علوّ". ابن منظور (جمال الدين)، **لسان العرب**، مراجعة وتدقيق يوسف البقاعي، إبراهيم شمس الدّين، نضال علي، المجلّد 4 (بيروت: منشورات مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، 2005)، ص 3825.

"نيكولا ساركوزي"، وهو ما يقتضي تبديله وذلك خدمة لمطلب التّغيير الذي أسّس عليه هولاند محاجّته للآخر، فتغيير الرّئيس سبيل إلى تغيير واقع البلاد نحو الأفضل من وجهة نظره.

وفي المقابل، فإنّ صوت الرّئيس المنتهية ولايته قد كان في العموم صوتًا متوتّرًا، يُخبر بشخصيّة تسعى لنفي التّهم الموجّهة إليها، وإلى الدّفاع عن الحصيلة السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة لفترة تولّيه رئاسة فرنسا، فخطاب الدّفاع الحِجاجي عند ساركوزي كان يستأنس بالصّوت العالي حينًا، وبالصّوت الخافت حينا آخر. ففي مواضع الإحساس بالضّيم والاقتناع بأنّ الخصم يروم إنكار أهمّية مُنْجَزِه السّياسي، بدا ساركوزي ينطق بصوت فيه الكثير من القوّة والصّرامة؛ خذ مثلًا على ذلك قوله إنّ فرنسا خلال ولايته لم تكن ساحة للصّراع والانقسام، بل كانت كلّ المظاهرات سلميّة، ولم يُقمع أيّ عمل احتجاجي جماعي بالقوّة، وكذا اعتراضه على القول إنّ فترة ولايته قد شهدت أكبر نسبة بطالة في تاريخ فرنسا، معتبرًا أنّ نسبة البطالة في البلاد أقلّ ممّا هي عليه في عدد من بلدان الاتّحاد الأوروبي.

وترتفع لهجة ساركوزي في حالات النّفي "هذا خطأ"، إذ يُعلي من نبرة الصّوت عمدًا، وذلك قصد تسفيه المنافس من ناحية، وإشهاد العالم على خطئه من ناحية أخرى، والمراد الطّعن في كلام الخصم، ودفع حجّة الصدقيّة على أقواله، فترى ساركوزي جادًّا في نفي مسؤوليّة الأنا عن التدهور المشهود، حريصًا في الوقت نفسه على اتّهام الآخر/ المقابل بالزّيف وعدم القدرة على تشخيص الواقع وتمثّله وقراءته وتحليله بطريقة سليمة، وذلك لغاية حِجاجيّة أساسيّة وهي أن يربك منافسه من ناحية، وأن يطعن في كفاءته من ناحية أخرى، ويبرز أنّ الخبرة هي الفيصل في كسب المعترك الانتخابي، مشرّعًا لمطلب الاستمراريّة الرئاسيّة، وذلك حتّى لا يقع البلد في أيدي خلفٍ لا يحسن تقدير الواقع وفهمه، وبذلك علت النّبرة في مواضع شعر فيها ساركوزي بضرورة إعلاء الصّوت خدمة لمطلب تسفيه المنافس.

لكنّ صوت الرّجل يميل إلى الخفوت في مواضع أخرى، ويبرز ذلك خاصّة عندما يتعلّق الأمر برغبة ساركوزي في الظّهور في موقع الضحيّة أو "كبش الفداء"، وتجلّى ذلك في عدّة مواضع من المناظرة، لعلّ أهمّها، لمّا قدّم نفسه في بداية المناظرة على أنّه ضحيّة حملة إعلاميّة/ انتخابيّة شعواء يقودها رموز اليسار الفرنسي في المؤسّسة النقابيّة والمؤسّسة القضائيّة، وتهدف إلى تشويهه وتقزيم جهوده في بناء فرنسا، بهدف إقصائه، بل وتحريض النّاس عليه عبر تشبيهه بأعلام الدّيكتاتوريّة في العالم من قبيل فرانكو وهتلر. وتقصّد ساركوزي بلهجة الخفوت والتّراخي الغالبة على صوته في مثل هذه المقامات التعبيريّة استعطاف القلوب ولفت النّاس إليه، واستنهاضهم للتّضامن معه في وجه من يتآمرون عليه ويرومون الكيد للفرنسيّين عمومًا بتقسيمهم، وتأليب بعضهم على بعض. والقصد من تلك النّبرة في التصويت استتباع النّاس وطلب النّصرة في معركة الرّئاسة، فتصبح المظلوميّة سبيلًا إلى مخاطبة وجدان النّاس، ولكسب ودّهم وإغرائهم بتأييد استمراره، وتصبح المظلوميّة أيضًا دعوة ضمنيّة إلى التّكفير عن الذّنب بنصر المظلوم وإبعاد الظّالم حفاظًا على السّلم الأهلي وضمانًا لاستمرار العدالة كما يراها ساركوزي.

سابعًا: وظائف المناظرة السياسيّة

ليست المناظرة السياسيّة خطابًا معزولًا، بل هي واقعة تواصليّة، ومناسبة حواريّة تتكوّن من ملفوظ ومن باثّ ومتلقّ، ومقام تلفّظ، والعلاقة بين هذه المكوّنات علاقة ضروريّة تفاعليّة، وصدور الكلام في المساجلات السياسيّة على جهة الحِجاج خيار منهجيّ دالّ، ويضطلع بعدّة وظائف لعلّ أهمّها:

1. الوظيفة التعريفيّة/ التعبيريّة

لقد اضطلعت المناظرة السياسيّة في اللّقاء الختامي الذي جمع هولاند بساركوزي بوظيفة تعريفيّة جلاّها سعي كلّ منهما إلى التعريف بشخصه من ناحية، والتّعريف ببرنامجه من ناحية ثانية، ففي مستوى التعريف بالشّخص بدا كلّ طرف ميّالًا إلى إبراز ذاته في موقع الرّجل المناسب في المكان المناسب، وقد زكّى ساركوزي نفسه باستحضار مجده السّياسي وتاريخه في خدمة البلد، فبدا معتدًّا برصيده السّياسي، ومركّزًا على إبراز خبرته بشؤون السّياسة وعلمه بفنون الرّئاسة، وبيّن أنّه قد فتح فرنسا على محيطها الخارجي، ودعّم شراكتها في الاتّحاد الأوروبّي، وأسهم في توحيد الفرنسيّين وفي الحفاظ على مصالح بلده في الدّاخل والخارج، وأكّد مساهمته في تجنيب بلاده مخاطر الأزمة الاقتصاديّة العالميّة، وفي ذلك إمعان في التعريف بالذّات، وإظهار مزايا الشّخص وتقديم نفسه على أنّه الأجدر بالرّئاسة من خصمه. وقد رفد ذلك بالتعريف بالخطوط العريضة لبرنامجه المستقبلي، مُخْبِرًا بأنّه سيحسّن الدّخل الفردي للمواطنين وسيحدّ من البطالة والهجرة.

أمّا فرانسوا هولاند، المرشّح الاشتراكي للرّئاسة، فكان هو الآخر حريصًا على تقديم نفسه في صورة الشخصيّة المؤلّفة لجموع الفرنسيّين[77]، القادرة على الأخذ بيد الغنيّ والفقير على السّواء، والمستعدّة لتجاوز الخلافات السياسيّة والانتماءات الأيديولوجيّة لجمع كلّ المحكومين على اختلاف أفكارهم وآرائهم وأعراقهم تحت راية الجمهوريّة.

وقد اغتنم المناظرة السياسيّة ليعرّف ملايين المشاهدين بمعالم برنامجه في الدّورة الرئاسيّة القادمة، وأسّس خطابه على بيان أنّ خطّته المستقبليّة تقطع مع كلّ أشكال الفساد الإداري والسياسي والمالي

[77] يقول هولاند إنّ فرنسا في حاجة لجهود كلّ الفرنسيّين لكسب معركة التقدّم: "نحتاج إلى كلّ قوّة فرنسا".

المشهود في عهد منافسه، وبذلك فقد تقاطع الخطاب الإعلامي الإبلاغي مع الخطاب الحِجاجي في المناظرة السياسيّة بين الطّرفين، فالتّعبير عن الذات وطرح البرامج لم يكن فعلًا إخباريًّا معزولًا، بل كان فعلًا تواصليًّا عضده الحِجاج وأسنده الاستدلال بغاية توضيح أجندة كلّ طرف ودفع النّاس إلى قبولها والعمل على ترويجها، فالتّعبير والتأثير فعلان متوازيان يتقصّدان الكشف عن تفاصيل أطروحة سياسيّة ما، ويرومان ردّ أطروحة أخرى مخالفة أو هي معارضة على نحو ما.

2. الوظيفة التأثيريّة

اتّخذ فعل التّأثير في الآخَر في المناظرة السياسيّة بين فرانسوا هولاند ونيكولا ساركوزي بعدين اثنين على الأقلّ: الأوّل طلب التأثير في الخصم نفسه والثاني طلب إيقاع التأثير في المتلقّي.

ففي البعد الأوّل بدا كلّ طرف مسكونًا بهاجس الرّغبة في إرباك المنافس، والتأثير فيه بطريقة أو بأخرى وذلك ببيان تهافت حجّته أو بمباغتته بأسئلة محرجة أو التهكّم منه قصد إحباط همّته وبعثرة أفكاره، ودفعه إلى الاضطراب أو الوقوع في شرك التناقض. وقد صرّح ساركوزي قبل بداية المناظرة أنّها "ستكون لحظة الحقيقة"[78]، ووعد أنصاره بأنّه "سيفجّر خصمه". وفي ذلك إخبار أنّه سيوظّف حدث المناظرة للتّأثير في مناظِره، بل وللفتك به سياسيًّا. وقد بدا هولاند مستعدًّا أيّما استعداد لردّ هجومات ساركوزي ومحاولاته المتتالية للاستخفاف به والتّهوين من إمكانيّاته باعتباره حديث العهد بالتّنافس على الرّئاسة، فكان أن تقمّص مسبقًا شخصيّة الزّعيم وواجه خصمه في موقع الندّ ممّا أضفى على المناظرة لون التّوازن، وأسهم ذلك في شدّ انتباه المتلقّي لمتابعة الحوار واستشراف مآلاته.

[78] عبّر ساركوزي عن أهمّية حدث المناظرة بقوله: "أريد أن يكون هذا المَسَاءُ لحظة فريدة يقدّم فيها كلّ شخص حقيقته".

والتّأثير في بعده الثاني موجّه نحو استمالة المتقبّل وتحويله من حال إلى حال، فالمراد إخراجه من دائرة الحياد نحو دائرة الانحياز إلى أحد الطّرفين المتقابلين، أو استتباعه وأخذه من الاصطفاف خلف رمز سياسيّ معيّن نحو الاصطفاف خلف أحد المتناظرين، وبذلك فالكلام غير بريء في المناظرة السياسيّة بل هو كلام موجّه بامتياز، ومقصود لغير ذاته باعتبار القصد هو استقطاب المتقبّل النّهائي، والفعل فيه على نحو مَا، "فالحِجاج هو توجيه خطاب إلى متلقّ ما من أجل تعديل رأيه أو سلوكه أو هما معًا"[79]؛ فالمتكلّم يستحضر أقطار الكلام، وأسباب البيان، وتقنيات المجادلة، وفحوى الخطاب، وثراء البرنامج السّياسي ليضمن تبكيت الخصم من ناحية، وعطف القلوب على رسالته من ناحية أخرى، فهو يدغدغ وجدان النّاخبين، ويحرّك انفعالاتهم، ويثير أسئلة في أذهانهم، عسى أن يلفت انتباههم إليه من ناحية فيخرجهم من حيّز اللاّمبالاة إلى حيّز المسؤوليّة، وعسى أن يثيرهم أو يردّهم إليه فيناصروه ويؤيّدوا تولّيه شؤون أمورهم ومقاليد سياستهم، وشرف رئاستهم، لذلك يكدّ الباثّ في طلب إقناع المتلقّي وهو ما يخبر به النّظر في الوظيفة الإقناعيّة.

3. الوظيفة الإقناعيّة

يُعدّ الإقناع غاية المناظرة السياسيّة وهدفها المركزي، وهو هدف يجري التمهيد له باستجماع الحجج، ورصف الأدلّة، والوصل المنطقي بين البراهين حتّى يأخذ بعضها برقاب بعض، كما يتمّ بلوغ الإقناع بتقريب الصّورة للمتقبّل واستحضار معطيات واقعيّة محسوسة، وشواهد عقليّة أو نقليّة مخصوصة واعتماد إحصائيّات مشهود بصحّتها وغير ذلك من الأدلّة كثير.

---

[79] محمّد الوليّ، "مدخل إلى الحِجاج أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان"، **مجلة عالم الفكر**، المجلّد 40 (تشرين الأول/أكتوبر – كانون الأول/ ديسمبر 2011)، ص11.

ويقتضي الإقناع القدرة على تمثّل الإشكاليّة مدار الجدل والإحاطة بها من كلّ جوانبها الفنّية والدلاليّة، وبكلّ المعطيات الثقافيّة والتاريخيّة الخاصّة بها، والعلم بممكنات حلّها، ومناهج دراستها، ومداخل فهمها. كما يتطلب الإقناع الاستعداد إلى سماع الخصم، والأخذ عنه، وإدراك كيفيّات انتظام خطابه ومواضع القوّة والضعف في أطروحته قصد كشفها وبيان تهافتها، وقد بدا كلّ من هولاند وساركوزي على غاية من التأدّب في مستوى استعداد كلّ منهما إلى الإنصات إلى وجهة نظر الآخر، والالتزام بالحيّز الزّمني بين الطّرفين المتنافسين بطريقة عادلة، وتأسّست إستراتيجية ساركوزي على السّماع، فالمبادرة بالنّقض، وتسفيه المنافس بإصدار أحكام تطعن في مصداقيّته، ثمّ التراقي تدريجيًّا لاستجماع الحجج، والبراهين الرّافدة للحكم والمؤيّدة له.

أمّا هولاند، فكان ميّالًا إلى الانطلاق من حصيلة حكم ساركوزي خلال مدّة رئاسته ليكشف فداحة ما آلت إليه سياساته من واقع مأزوم اقتصاديًّا واجتماعيًّا وقيميًّا، وليبرز أنّ خصمه محجوج بتركته الإداريّة الثقيلة في مستوى رئاسة الدّولة، فتزايد نسب العجز في الميزان التّجاري، وتضخّم المديونيّة وكثرة المهاجرين والعاطلين عن العمل، كلّ ذلك يقوم دليلًا على فساد النموذج الساركوزي في قيادة البلد، ويقنع المتلقّي بمساندة أطروحة هولاند في الدّعوة إلى التغيير والتّطوير في شتّى المجالات. فمعلوم أنّ إقناع المتقبّل هو الغاية التي يسير إليها التناظر، وهو الهدف الذي ينشده الحوار، فالغُنْم المراد من "حرب الكلمات" هو تهيئة المتلقّي للقبول بوجهة نظر معيّنة، واستدراجه إلى التّسليم بصحّتها والدّفاع عن شرعيّتها. ولذلك تتنوّع الحجج وتتشكّل اللّغة وتُصاغ الأسئلة على أنحاء عدّة يُراد بها إثارة المتابع للمناظرة وضمان استتباعه الذي لا يكون إلاّ عبر إقناعه ذهنيًّا وكسب تعاطفه وجدانيًّا مع طرح دون آخر.

ثامنًا: قصديّة الحِجاج في المناظرة السياسيّة

ليست المناظرة السياسيّة خطابًا بريئًا، بل هي واقعة تواصليّة، ورسالة لغويّة ذات مقاصد عدّة لعلّ أهمّها إحداث التفاعل والاستقطاب والاستجابة لأفق انتظار المتقبّل، وتفصيل القول في ذلك على النّحو التالي:

1. إحداث التفاعل

ليست المناظرة السياسيّة عملًا لغويًّا وفعلًا حِجاجيًّا مقصودًا لذاته، فهي مقام تواصليّ يجمع بين طرفين فأكثر يتنازعان الأفكار، ويتدافعان الأقوال والمواقف في مسائل خلافيّة شتّى، فإثارة الطرف المقابل واستدراجه للوقوع في الخطأ، هنا، أمر مقصود يُراد به إقامة الحجّة عليه وإشهاد الناس على تهافت أفكاره واختلال أحكامه. وبذلك فالمناظرة لا تؤسّس للتفاعل بين المتنافسيْن المجادليْن فحسب، بل تتقصّد إثارة ردود فعل متباينة بين جمهور المتابعين لحدث التناظر، فشدّ المشاهد ودغدغة أحاسيسه ومداعبة خياله والإيهام بتحقيق أحلامه هي إستراتيجيّات خطابيّة تستبطن نفسيّة المتقبّل، وتأخذ من علم النّفس اللّغوي بطرف، ومن علم النّفس الاجتماعي بطرف آخر، باعتبار أنّ اختيار اللّغة، ونظم العبارة، ورصف الحجّة واصطفاء المحتوى يقوم على قراءة استباقيّة لرغبات الجماعة/ الهدف وحاجياتها، ولمشاغل النّاخبين وانتظاراتهم في مقام الحال، فقد جدّ هولاند وساركوزي في استجماع أقطار الكلام، وفي تعديد البراهين، وتكثير الوعود سعيًا إلى جعل الكلام ملائمًا لأشواق السّامعين، منسجمًا مع حاجيات النّاخبين على نحو يغري بمتابعة المناظرة من ناحية، ويعمّق التفاعل الإيجابي مع طرف دون آخر من ناحية أخرى، وذلك بحسب ما يراه المتلقّي من فضل لمرشّح على آخر، وما يبدو له من توفيق لهذا في العَرْض والبسط

والاستدلال والإقناع وما يبدو له من فشل لذاك في الوصف والتّحليل والبرهنة والاستجابة لآفاق انتظار المتقبّل. وبذلك فإحداث التفاعل سلبيًا أو إيجابيًا مطلب تبتغيه المناظرة السياسيّة.

2. الاستجابة لأفق انتظار المتقبّل

يتقصّد الحِجاج في المناظرة السياسيّة الاستجابة لأفق انتظار المتقبّل، والمراد بأفق الانتظار في مقامنا هذا مجموع الرّغبات والطّلبات والطموحات والهواجس والحاجيات التي تسكن ذهن المخاطب وتشغل باله ويروم السياسي تمثّلها، والوعد بتلبيتها والتعبير عن علمه بأهمّيتها، واستعداده للتفاعل معها، والعمل على تحقيقها. فرجل السياسة هنا يصبح في موقع المثقّف العضوي على حدّ عبارة "غرامشي"؛ المثقّف المنفتح على هموم الناس وعلى أحلامهم، والواعي بطاقاتهم، وقدراتهم، والمنتمي إلى عصرهم بمستجدّاته المختلفة وتحدّياته المتعدّدة، "فالاستجابة لأفق انتظار المتقبّل تتجاوز مجرّد إحداث التّأثير الحِجاجيّ في الجمهور إلى الاتّحاد مع هذا الجمهور فكرًا ووجدانًا"[80].

لذلك حرص كلّ من ساركوزي وهولاند على الظهور في موقع الشخص القريب من الفرنسيّين، المسكون بمشاغلهم، والعليم بماضيهم وحاضرهم، والمستشرف مستقبلهم. فقد داعب المترشّحان في جمهور المتقبّلين، الرّغبة في تنمية اقتصاديّة أفضل، والتطلع إلى دخل فردي أحسن، والحلم ببلد جمهوري يسوده الأمن والاستقرار والشفافيّة والرّفاه، كما عبّر كلّ منهما عن تقديم حلول عمليّة لمشكلات البطالة والتفاوت الطبقي بين الأغنياء والفقراء، ومشكلات الهجرة والتنافسيّة والمحافظة على الهويّة العلمانيّة للدّولة. من هنا، فإنّ المرشّحين ينغرسان عميقًا في التربة الاجتماعيّة الفرنسيّة، ويستبطنان الوعي الفردي والجمعي للنّاس، ويرسلان رسائل إيجابيّة لأنصارهما وغير أنصارهما قصد بعث الطمأنينة في النّفوس

[80] عبد الله صولة، "الحِجاج"، ص322.

وإعادة الثقة في رجالات الدّولة، وقصد تحفيز النّاس على المشاركة في الفعل الانتخابي من ناحية وفي مشروع بناء الدّولة المنشودة من ناحية أخرى، وبذلك فالحِجاج السياسي هنا يداعب البعد النّفسي في المتلقّي ويكدّ في تمثّل حاجياته ورغباته وأحلامه ليكون في مستوى آمال المواطنين وفي مستوى آفاق انتظاراتهم.

3. الاستقطاب

بدا من خلال متابعتنا لمناظرة هولاند وساركوزي أنّنا إزاء مشروعين مختلفين: مشروع يستمدّ شرعيّته من الماضي، ويرى ضرورة الاستمرار في نحت تجربة سياسيّة سابقة والعمل على تطويرها، ومشروع يعد بالقطع مع الماضي والتّشريع للتغيير قصد كسب معركة التقدّم على الصعد كافّة في المستقبل، فبذلك فنحن إزاء قطبين متناظرين متعارضين. وكلّ قطب يروم اصطفاف الجمهور حوله ويوظّف آليّات البيان والبرهان قصد استتباع أكبر عدد ممكن من المناصرين المحتملين الذين يعتبرون قوّة الدّفع لمشروعه والسّند الرّئيس لتحويله من حيّز الإمكان إلى فضاء الإنجاز. لذلك، راهن الطّرفان كلاهما على تنويع أدوات الحِجاج ووسائل والتأثير في المتلقّي، فجرى التركيز على مشاغل الدّاخل بدل الخارج، وجرى فتح الأزمنة بعضها على بعض من الماضي فالحاضر فاستشراف المستقبل، واستدعيت الحجج الواقعيّة والقيم الأخلاقيّة والشخصيّات الرمزيّة والعبارات المجازيّة قصد التأثير في المتلقّي، والخروج به من الشكّ إلى اليقين ومن الحياد إلى الانحياز. وبهذا، فللّغة في المناظرة السياسيّة وظيفة تحويليّة بامتياز باعتبارها تروم استدراج المتلقّي من موقف إلى آخر، فهي تسعى لتبديل قناعاته المسبقة وأحكامه الجاهزة وتصوّراته الأحاديّة للواقع، وتفتح ذهنه على معطيات وجوانب جديدة من صورة الموجود والمنشود. والغاية استمالة المتلقّي واستقطابه ليكفّ عن كونه محايدًا أو منحازًا للطّرف المقابل، فيصبح نصيرًا لأحد المتنافسين، مقتنعًا ببرنامجه السياسي ومساره الحِجاجي، بل يتحوّل المستقطَبُ/ الهدف إلى منافح عن فكرة ما ومدافع عن تيّار سياسي معيّن، ناشرًا محامل مشروعه، داعيًا الآخرين إلى تمثّله وتبنّيه والالتحاق

بصفّ مناصريه، فيغدو المتلقّي عنصرًا إشهاريًّا إعلاميًّا، معرّفًا بمشروع سياسيّ دون آخر. لذلك كان الاستقطاب غاية المناظرة السياسيّة الأبرز.

استنتاجات

نخلص من خلال النّظر في إستراتيجيّات الحِجاج في مناظرة فرانسوا هولاند ونيكولا ساركوزي إلى إثبات النّتائج التّالية:

- بدا في المناظرة أنّ جمهور النّاخبين هم أصل الجدال وهم غايته، فالمرشّحان يدّعيان الانتماء العضوي إلى الشعب، وكلاهما يطمحان إلى صوغ برامجهما السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة وفق تطلّعات الناس. فبدا الرّئيس القادم شخصًا لا يملك الشرعيّة إلاّ بتفويض الفاعلين الاجتماعيّين له، أعني جمهور المواطنين؛ فالشّعب ممثّلًا في الأغلبيّة يختار من يحكمه، والحاكم لا يحكم بأمره أو على هواه، ولا يمارس صلاحيّاته كما يشتهي، بل يحكم وفق ما تقتضيه مؤسّسات الدّولة المدنيّة (البرلمان– المجلس الأعلى للقضاء– الأحزاب– المعارضة) ووفق ما يتطلبه السلوك السياسي الديمقراطي في الدولة الجمهوريّة، وبذلك فالدّولة ليست عملًا سحريًّا أنجزه الرّئيس، بل هي كيان يُبنى بالتوافق والتآلف، وبمساهمة كلّ الأطراف، وما الرّئيس إلاّ خادم من خدم الشعب ومواطن من مواطني الدولة الفاعلين.
- تعلّقت المناظرة في أغلب ردهاتها بالشأن الداخلي لعموم الفرنسيّين، وبدا الاهتمام بالسياسة الخارجيّة عرضيًّا، وكان استحضارها على سبيل الاهتمام بواقع المواطن الفرنسي ومستقبله، فالحديث عن موقع فرنسا من الاتحاد الأوروبي أو عن جدولة سحب الجنود الفرنسيّين في أفغانستان، أو عن مصير الرهائن الفرنسيّين المحتجزين لدى تنظيم القاعدة في المغرب الإسلامي، كلّها مسائل تتعلّق بالشأن الوطني

الفرنسي، وتتمركز حول اعتبار المواطن الفرنسي قطب الرّحى في العمليّة الانتخابيّة وفي التجربة الرئاسيّة، فالإنسان كائنٌ يُولى له الاعتبار الأوّل في الدّيمقراطيّات الحديثة، وفي مقدّمتها الديمقراطيّة الفرنسيّة على خلاف الكثير من الدّول العربيّة التي لا تزال تعامل مواطنيها على أنّهم رعايا وتبّع، مهمّتهم تزكية الحاكم أو مبايعته أو التصفيق له وتأبيد حكمه.

- لم تكن المناظرة لحظة استعراض مجاني للقدرة على صوغ الكلام الجميل والاستعارات البرّاقة والعبارات الفضفاضة والشّعارات الخياليّة، بل كانت لحظة جدل جادّ، وكانت فضاء حوار مفصّل حول عدد من القضايا المهمّة داخل الاجتماع الفرنسي، وبدا كلّ طرف ميّالًا إلى اعتماد إستراتيجيّات دقيقة في تقديم مقترحاته وطرح برامجه والحِجاج على صحّتها، ونقد سياسات خصمه وتصوّراته وبيان مدى تهافتها مع تقديم البديل منها، ممّا أضفى على التناظر ثراء في المستوى ودقّة في الحجّة، وتباينًا في زوايا النظر حول قضايا الشأن العامّ، وهو ما يتيح للمواطن الفرصة للتدبّر والاختيار.
- بدت الخيارات السياسيّة في المناظرة مشروع بحث، ومدار تفكّر، فهي أبعد ما تكون عن المنجز المعرفي الجاهز، أو الخطاب المتعالي المغلق على نفسه.
- كان ساركوزي خلال المناظرة حريصًا على الظهور في مظهر الرئيس المسؤول، وفي صورة رجل فرنسا القويّ القادر على تمثّل مشاكل البلد، وتحقيق طموحات مواطنيه بحكم خبرته بالرئاسة وتمرّسه بشؤون الحكم، لكنّه بدا ميّالًا إلى الاستمرار في نسق الحكم القديم غير مفصّل لإمكانات التجديد وتجلّياته في المرحلة القادمة. كما بدا مصرًّا على صواب خياراته السّابقة، ملتمسًا الحجّة، حتّى وإن وهنت، ليبرهن على نهجه في معالجة القضايا الشائكة في بلاده. كما غلبت على خطابه لهجة الدّفاع عن النّفس والهروب إلى الأمام، فكان في أكثر من موضع كمن يردّ التهمة عن نفسه ولا يهتمّ بصناعة المبادرة أو بتقديم البديل، والإقرار بالخطأ نقدًا للذات وتأسيسًا للمستقبل. ولعلّ ذلك ما أثّر في نتائج الانتخابات لاحقًا وصرف النّاس عنه.

- بدا هولاند واثقًا من نفسه في غير غرور، ناقدًا خصمه، مؤسسًا مشروعه في السياسة وإدارة شؤون البلاد بالعزم على القطع مع السياسات الفاسدة السّابقة لمنافسه والوعد بالتغيير وتقديم البديل في شتّى المجالات، منفتحًا على كلّ الفرنسيّين، معبّرًا عن تواضعه وانفتاحه على مشاغل كلّ المواطنين واستعداده لتحويل الوعد إلى إنجاز والحلم إلى حقيقة وذلك في حدود الممكن. فكان أن استثمر قدراته على الحِجاج والبيان في إبراز هنات الولاية الرئاسيّة لساركوزي، وإقناع الناخبين بأنّ استمرار الساركوزيّة هو استمرار للبيروقراطيّة والمحاباة والمحسوبيّة والفرقة، وتأخير لقيام دولة العدالة والرّفاه والشفافيّة وتكافؤ الفرص التي يطمح إليها عموم الفرنسيّين، فاكتسى خطاب الرّجل طابع الواقعيّة الحالمة، وانبنى على المحاججة الناقدة مع تقديم البرامج البديلة الواضحة إلى حدّ ما، وهو ما أغرى النّاس بمناصرته، وأضفى عليه شيئًا من الكاريزما التي زادت في التفاف الأغلبيّة حوله، فكان في إتقان الرّجل لإستراتيجيّات البيان والبرهان والحضور دور مهمّ في اعتلائه كرسيّ الإليزيه.
- ليست المناظرة السياسيّة خطابًا استعراضيًّا أو بريئًا، بل هي نتاج ثقافيّ جداليّ مركّب حمّال لخلفيّة أيديولوجيّة وقصديّة بامتياز.
- يتأسّس الخطاب في المناظرة السياسيّة على تعداد الحجج وبسط البرامج واستدعاء أقطار الكلام وأسباب البيان قصد التّعبير عن الأنا والتأثير في الآخر.
- تبدّى من خلال مناظرة ساركوزي وهولاند أنّ الحِجاج في المناظرة السياسيّة يروم التأسيس للذات عبر تقويض الآخر، ويبتغي استمالة النّاس، وترجيح رأي في الأشياء والظواهر على رأي غيره.
- تُعدّ المناظرة السياسيّة فنًّا من فنون البيان يجري صوغها وفق إستراتيجيّات في الحِجاج والتّعبير مخصوصة يتوقّف على انتظامها ووضوحها مدى التأثير المتوقّع في المتقبّل.
- تبقى المناظرة السياسيّة شاهدًا من شواهد التقدّم في الدّول الحداثيّة باعتبارها فرصة للتّعبير والتّباري في مجال الأفكار، فهي تشرّع لسلوك الاختلاف في تقويم قضايا الشّأن العامّ.

- تفتح المناظرة السياسيّة المجال للتعدّد الفكري والثّقافي ولتنسيب الظّواهر والمواقف والبرامج، وتسهم في صوغ عقل جمعيّ ناقد وبنّاء يؤمن بالتعدديّة، ويرفع القداسة عن السّياسة ورجالات السّياسة.
- ثمة حاجة أكيدة إلى ترسيخ تقاليد المناظرة السياسيّة في المشهد العمراني والعربي المعاصر؛ وذلك لتكريس ديمقراطيّة التّفكير والتّعبير، ولضمان إرساء معالم "المجتمع المواطني"[81] الفاعل في بناء الدّولة المستنيرة المنشودة.
- هل نشهد مناظرة سياسيّة مدارها التّنافس على رئاسة الدّولة بين رئيس حاكم ومنافس له في البلاد العربيّة؟ هذا سؤال آخر تجيب عنه السّنوات القادمة.

[81] عزمي بشارة، "فاعليّة المجتمعات المدنيّة في الدّول العربيّة".

المصادر والمراجع

أولاً: مصادر المناظرة

- النّسخة المصورة بالفيديو لمناظرة التنافس على الرّئاسة بين نيكولا ساركوزي وفرانسوا هولاند على الرّوابط التّالية:

http://www.dailymotion.com/video/xqjsal_debat-hollande-sarkozy-integral_news

http://www.dailymotion.com/video/xqjtba_debat-hollande-sarkozy-integral-2_news

http://www.dailymotion.com/video/xqjuce_debat-hollande-sarkozy-integral-3_news

النّسخة المرقونة لمناظرة التنافس على الرّئاسة بين نيكولا ساركوزي وفرانسوا هولاند على الرّوابط التّالية في موقع صحيفة **لوموند** *Le Monde* الفرنسيّة:

"Le compte rendu intégral du débat Sarkozy-Hollande," Le Monde.fr (3/5/2012):

http://www.lemonde.fr/election-presidentielle-2012/article/2012/05/03/sarkozy-hollande-le-compte-rendu-integral-du-debat-theme-par-theme_1694802_1471069.html

http://www.lemonde.fr/election-presidentielle-2012/article/2012/05/02/le-compte-rendu-integral-du-debat-propos-liminaires-et-chomage_1694431_1471069.html

http://www.lemonde.fr/election-presidentielle-2012/article/2012/05/03/compte-rendu-integral-deficits_1694444_1471069.html

http://www.lemonde.fr/election-presidentielle-2012/article/2012/05/03/le-compte-rendu-integral-du-debat-depenses-publiques-education-europe-partie-3_1694458_1471069.html

http://www.lemonde.fr/election-presidentielle-2012/article/2012/05/03/compte-rendu-integral-du-debat-immigration-partie-4_1694472_1471069.html

http://www.lemonde.fr/election-presidentielle-2012/article/2012/05/03/compte-rendu-integral-du-debat-nucleaire-institutions-politique-etrangere-partie-5_1694483_1471069.html

- **ثانياً: المصادر والمراجع العربيّة**

ابن منظور، جمال الدين، **لسان العرب** (بيروت: دار صادر، 1992).

ابن منظور، جمال الدّين، **لسان العرب**، مراجعة وتدقيق يوسف البقاعي، إبراهيم شمس الدّين، نضال علي، المجلّد 4 (بيروت: منشورات مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، 2005).

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، **البيان والتبيين**، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ت.).

الجرجاني، الشريف، **التعريفات**، تحقيق إبراهيم الأبياري (بيروت: دار اللّسان العربي، 1992).

الحرّاصي، عبد الله، **دراسات في الاستعارة المفهوميّة**، كتاب نزوى، الإصدار الثالث (مسقط: مؤسسة عُمان للصّحافة والأنباء والنشر والإعلام، نيسان/أبريل 2002).

الزّبيدي، محمّد مرتضى الحسيني، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق عبد الحليم الطحّاوي، المجلد 14 (الكويت: مطبعة الكويت، 1974).

سبيلا، محمّد، "الأيديولوجيا والبلاغة"، مجلّة **المناظرة**، العدد 4 (1991).

صولة، عبد الله، "الحِجاج: أطره، منطلقاته وتقنياته من خلال مصنّف في الحِجاج- الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكان"، في: حمّادي صمّود (مشرف)، فريق البحث في البلاغة والحِجاج، **أهمّ نظريّات الحِجاج في التقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم** (تونس: جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانيّة تونس 1، كليّة الآداب بمنوبة، د.ت.).

العزّاوي، أبو بكر، **اللّغة والحِجاج** (الدّار البيضاء: العمدة في الطبع، 2006).

العشي، عبد الله، **زحام الخطابات، مدخل تطبيقي لأشكال الخطابات بواسطة** (تيزّي وزّو، المدينة الجديدة: دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، 2005).

الغرافي، مصطفى، "البلاغة والأيديولوجيا: بحث في العلاقة الملتبسة بين المعرفة البلاغيّة والمطالب الإيديولوجيّة"، **مجلّة الفكر العربي المعاصر**، العدد 156- 157 (خريف 2011).

المبخوت، شكري، "نظريّة الحِجاج في اللّغة"، في: حمّادي صمّود (مشرف)، فريق البحث في البلاغة والحِجاج، **أهمّ نظريّات الحِجاج في التقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم** (تونس: جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانيّة تونس 1، كليّة الآداب بمنوبة، د.ت.).

متقن، هاجر، "آليّات تشكّل الخطاب الحِجاجي بين نظريّة البيان ونظريّة البرهان"، **مجلة الأثر**، مجلّة الآداب واللّغات، العدد 5 (ورقلة: جامعة قاصدي مرباح، آذار/ مارس 2006).

وحدة تحليل السياسات، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، "بعد فوز الاشتراكيّين، هل تتغيّر سياسة فرنسا العربيّة؟" الدّوحة، 3 تموز/ يوليو 2012.

الوليّ، محمّد، "مدخل إلى الحِجاج أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان"، **مجلة عالم الفكر**، المجلّد 40 (تشرين الأول/ أكتوبر – كانون الأول/ ديسمبر 2011).

-
- **ثالثًا: المراجع الأجنبيّة**

Bruce, Steve, and Steven Yearlay, *The Sage Dictionary of Sociology* (California and New Delhi: Sage Publications LTD., 2006).

Christian Le Bart, *Le discours politique, Que sais-je?*, n° 3397 (Paris: PUF, 1988).

Cortell, Hella, *Critical Thinking Skills: Developping Efection, Analysing and Argument* (New York: Palgrave Macmilan, 2005).

Darbellay, Karine, *La psychopédagogie de l'argumentation* (Neuchâte: Institut de psychologie, Université de Neuchâte, Mai 2005).

Demonpion, Denis et Laurent Léger, *Tapie- Sarkozy, Les chefs du scandale* (Paris: Pygmalion, 2009).

Glenn O'Brien, "Les candidats français sous toutes les coutures," *Courrier international*, hors-série: Tendances, Style et politique (Mars, Avril, Mai 2012),

Larousse illustré (Paris: Edition Larousse, 2009).

Le Petit Larousse illustré (Paris: Editions Larousse, 2008).

Mayer, Robert, *How to win any argument* (New Jersey: Career press, Franklin Lakes, 2005).

Perelerman, Chaîm et Lucie Olbrechts-Tyteca, *Traité de l'argumentation-la nouvelle rhétorique, pré face de Michel Mayer*, 5ème édition (Bruxelles: éditions de l'université de Bruxelles, 1992).

Philippe Breton, "L'argumentation dans la communication," Contribution presentée dans le cadre de la Journée des études "Usage et réception des médias," 26 mai 1998, école normale supérieure de Fontenay- Saint Cloud

Pinçon, Michel, Monique Pinçon-Charlot, Le président des riches: Enquête sur l'oligarchie dans la France de Nicolas Sarkozy, Paris, 2010.

Raty, Mc Adam, Heather Botman and Emma Harris, *Dictionary of Politics and Government*, 3ed edition (London: Bloomsbury publishing, PLC, 2004).

Renaud, Rély et Didier Gassons, *Sarkozy et l'argent roi* (Paris: Fayard, 2008).

- **رابعًا: المراجع الإلكترونيّة**

عبد النور بن عنتر، "سياسة فرنسا في عهد هولاند... بين الاستمراريّة والتّغيير"، الدّوحة، مركز الجزيرة للدراسات، 7 أيار / مايو، 2012، ص 2، انظر:

http://studies.aljazeera.net/reports/2012/05/201257132039483995.htm

عزمي بشارة، "السياقات التاريخيّة لنشوء العلمانيّة"، تونس، قصر قرطاج، 19 أيار / مايو 2012، انظر النسخة المصورة بالفيديو من المحاضرة على:

http://www.dohainstitute.org/Gallery/1/0

عزمي بشارة، "فاعليّة المجتمعات المدنيّة في الدّول العربيّة"، الدوحة، ملتقى النهضة الشبابي الثاني، نيسان / أبريل 2011، انظر:

http://www.youtube.com/watch?v=mal4N8MCtCw

وحدة تحليل السياسات، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، "بعد فوز الاشتراكيين، هل تتغير "سياسة فرنسا العربيّة"؟" 3 تموز/ يوليو 2012:

http://www.dohainstitute.org/release/16102c1c-9b55-4a96-988a-0fe24f3e1c54

Mathieu Bruckmüller et Bernard de Volontat, Débat Hollande -Sarkozy: Qui a gagné la bataille des chiffres? Publié le 3 mai 2012: http://www.20minutes.fr/economie/927837-debat-hollande-sarkozy-gagne-bataille-chiffres

http://www.elysee.fr/

http://www.gouvernement.fr/

http://www.france.fr/

http://www.legifrance.gouv.fr